

دكتور عبد العزيز كامل

خطوات نحو القدس

دكتور عبد العزيز كامل

خطوات نحو القدس

اقرأ ٣٩٤
دار المعارف بمصر

(اقرأ ٣٩٤)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

هذه مجموعة من المقالات ينتظمها خط فكرى واحد ، هو ارتباطها بالقدس الشريف . . وفلسطين العربية . . وأرضنا السليبة ، ارتباطـًا يراها فى منظورها التاريخى وعطائها الحضارى ، وكفاحها فى معركة رمضان المجيدة ، وما سبقها من استعداد ، وما وراءها من تبعات التحرير والتعمير .

وأنت إذا ما نظرت إلى مساجدنا الثلاثة ، وجدت المسجد الأقصى ، الذى بارك الله حوله ، شهد من المعارك العالمية ما لم يشهده غيره . . وإذا كان قد عرف السلام الطويل فى ظل العروبة والإسلام ، فإن استمرار هذا السلام يحتاج منا دائمـًا إلى حفظ ، وتطهير من كل غاصب وتأمين لكل عابد يقصد ساحاته متجرداً لله . .

وتستطيع — عمليـًا — أن تتخذ من القدس الشريف ميزانـًا دقيقـًا لقوة العروبة والإسلام . . ولك أن تسأل :

— من الذى يحكم القدس ؟

وإجابتك عن هذا السؤال تحدد مسئوليتك فى الحاضر والمستقبل .

وفى حرب رمضان المجيدة – إذا ما نظرت إلى جبهة سيناء والجولان – وجدت أن أهم ما حققناه على أرض المعركة كان « خطوات نحو القدس » .

ويوم نستطيع أن نحررها نكون قد حررنا أرضنا ، وأعدنا السلام إلى أرض السلام . .

للقدس علينا أن نخطو . . بسلاحنا ، بأقلامنا ، بعزائمنا ، بدمائنا بشهدائنا . ومن أرضه المباركة يكون معراجنا إلى أفق آمالنا . . . « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

الدقى فى : غرة ذى الحجة سنة ١٣٩٤ هـ

١٥ ديسمبر سنة ١٩٧٤ م

عبد العزيز كامل

حريق المسجد الأقصى*

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى عباده الذين اصطفى .

إخوانى وأبنائى :

يطيب لى فى صدر هذه الكلمة أن أتوجه بخالص التقدير إلى إخواننا المسيحيين من أبناء هذا الوطن الكريم ، أن تفضلوا فأنابوا عنهم عالمًا جليلا ، يساهم معنا فيما نقوم به من جهد ندعو الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا بخطوطه . لاستعادة بيت المقدس وأرضنا السليبة . وليس هذا بجديد على سماحة عاش فيها المسلمون والمسيحيون من أبناء العروبة . سماحة ورثناها عن أنبيائنا وأصبحت سمة بارزة على طريق نضالنا .

ونحن نذكر جذور هذه السماحة فيما أنزل الله على رسوله «آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ، وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ» (البقرة : ٣٨٥ — ٣٨٦) .

وعندما قدم وفد نصارى نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

* ألقيت فى يوم المسجد الأقصى «بجامعة الأزهر» بالقاهرة ١٢ من جمادى الآخرة ١٣٨٩ هـ الموافق ٢٥ من أغسطس سنة ١٩٦٩ م .

بالمدينة – كما يروى ابن إسحاق – دخلوا عليه مسجده بعد العصر ، فحانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجده ، فأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله (ص) « دعوهم ، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم »[١] .

وتأتى ليلة الإسراء والمعراج تأكيداً آخر للإخاء بين الأديان . فى حديث أنس بن مالك فيما يرويه عن الرسول . . « ثم ركب البراق فسار حتى أتى به إلى بيت المقدس ، فصلى فيه بالنبيين والمرسلين ، إماماً ، ثم عرج به إلى السماء » .

من أجل ذلك كان هذا المكان مسجداً لله فى العهد المكى لنزول القرآن وقبل هجرة الرسول (ص) إلى المدينة . وكان مكاناً كرمه الله بأن جمع فيه الأنبياء تنتظمهم صلاة واحدة . . فإذا كان أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، فإنه – إلى جانب ذلك – ملتقى الأنبياء والمرسلين ، ومدرسة لأتباعهم أن يعيشوا هذا الإخاء ، وأن يشيعوا نوره فى الدنيا .

بهذه الروح الخاشعة لأمر الله ، دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس سنة خمس عشرة بعد الهجرة ، ولما حضرته الصلاة دعاه البطريق إلى أداء الصلاة فى كنيسة القيامة فرغب عمر عن ذلك ، وفضل أداء الصلاة خارج الكنيسة وكانت وجهة نظره « إذا صليت جاء المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر ، ويتخذون منها مسجداً » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٢٤ ط. الحلبى ، ابن القيم : زاد المعاد ٣ : ٧٩ – ٨٠ ط. السنة المحمدية . القاهرة .

وبدت هذه الروح السمحة فيما قاله عمر لأهل بيت المقدس : « يا أهل إيلياء : لكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

وجاء فى نص العهد بين عمر بن الخطاب وأهل بيت المقدس كما يرويه الطبرى « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين هل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . . . »[1] وكان ذلك لما لقى المسلمون والمسيحيون من مكرهم . . ولم يكن هذا موجهًا إلى اليهودية كدين وإنما إلى يهود القدس وقتئذ كطائفة لها مكرها .

وهذا المنطق هو الذى سار عليه الإسلام من قبل : فالرسول لم يبدأ يهود المدينة بالعدوان . . وعندما عدا عليه يهود بنى قينقاع كانت ضربته موجهة إليهم وحدهم دون بنى النضير وبنى قريظة ؛ ثم عدا بعد ذلك يهود بنى النضير فوجه إليهم ضربة ثانية ، وخانه يهود بنى قريظة فوجه إليهم ضربة ثالثة ، ولما تحرك يهود خيبر وجه إليهم ضربة رابعة طهّر بها الجبهة الشمالية فى الجزيرة العربية حيث مواطن التجمع اليهودية الأخرى فى فدك ووادى القرى وتيماء .

نحن المسلمين تعلمنا من قرآننا ونبينا احترام الأنبياء والنبوات . ويعلمنا

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٦٠٩ ط. المعارف ، القاهرة .

نبينا هذه الصلة القوية بين مراحل البناء الديني من أجل حياة أفضل فيقول : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى بيتاً فجمّله وحسنه ، إلا موضع لبنة في زاوية ، فكان الناس يقولون : ما أجمله ، ما أحسنه هلاّ وضعت هذه اللبنة ؟ يقول النبي عليه الصلاة والسلام : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

إنه الدين الذي يؤمن بالإخاء ويرفع سلاحه ، حين يرفعه ، لإزالة ظلم وإحقاق حق ، وإن كان المعتدى من أبناء الإسلام :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » (الحجرات : ٩) :

وعندما جاءت الحروب الصليبية ، أثبت التاريخ العلمي كيف تعاون المسلمون والمسيحيون من أبناء هذه الأرض الطيبة ضد العدوان الذي جاء متستراً وراء صليب المسيح في حين أن السيد المسيح هو الذي بشر بالرحمة والمحبة . وقد علم أبناء هذه الأرض أنها المطامع والشهوات هي التي دفعت أمراء أوربا إلى البحث عن مغانم جديدة في أرضنا .

وتتكرر القصة الآن عندما تحاول الصهيونية العالمية أن ترفع شعاراتها لتقيم دولة عنصرية مغتصبة في أرضنا .

إنهم يقولون « مادامت هناك توراة فلا بد أن يكون هناك شعب للتوراة ، وما دام هناك شعب للتوراة فلا بد أن تكون هناك أرض للتوراة . وأنه لا إسرائيل بغير القدس ولا قدس بغير الهيكل » . .

مرة نجد التحدى الصهيونى بالعلم الحديث وأحدث الطائرات ، ومرة نجد التحدى الصهيونى فى أقدس المقدسات . . مرة يتجه إلى المستقبل ، ومرة يعود إلى آلاف السنين . . . لا احترام لمقدسات . . لا احترام لبيت عبادة . . لا احترام للتاريخ نفسه . . لا احترام لحقوق أبناء الأرض . . لا يرجون لخالق السماوات والأرض وقاراً .

تاريخ ثلاثين قرناً من الحضارة المتصلة فى هذه الأرض بما فيها من أديان سماوية ودول قامت وحضارات تفاعلت . . . كل ذلك ينبغى أن يمحى من التاريخ وتفرض الصهيونية عليه دويلة صغيرة عاشت فيه سبعين عاماً منذ ثلاثين قرناً .

بهذا المنطق تنظر إسرائيل إلى العلم والحضارة والمقدسات والدين ، وتساندها دولة عظمى كانت منذ عهد الكشوف الجغرافية فى القرن السادس عشر مسكونة بالهنود الحمر ، ولم تفكر الولايات المتحدة فى أن تعيد هذه الأرض إلى أبنائها . . إلا أن تكون هذه الشعارات الصهيونية عصابات توضع على عيون البسطاء .

وإعمالا لهذه الشعارات تجرؤ إسرائيل على حرق المسجد الأقصى يوم الخميس ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٩ ، ومن قبل هذا امتدت أيديهم إلى الكنائس فحطمتها وإلى تاج العذراء فسرقته ، وإلى مساجد ودور

فدمرتها ، وحفرت الأرض تحت المسجد الأقصى باحثة عن أى أثر ، أو شبه أثر ، يحاولون التذرع به للهدم وتدمير المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، لإقامة هيكل سليمان .

وهذا الحريق يمثل تصاعداً فى المعركة بيننا وبين أعدائنا . . تصاعداً يضم الماضى المقدس ، والحاضر المناضل ، والمستقبل المرتقب ، إنه إنذار ملتهب إلى العالم الإسلامى والمسيحى معـًا . . بل إلى الأديان حيث تكون .

من أجل هذا رأينا رد الفعل الدينى عنيفـًا على مستوى العالم كله . . العالم الإسلامى كله تحرك من أجل المسجد الأقصى . . فهو ليس مجموعة من الأحجار والأعمدة والزخارف والأبسطة . . إنه أولا وقبل كل شىء بيت من بيوت الله ظل مصونـًا عزيزاً أربعة عشر قرنـًا . ومع صيانته وعزته ظلت كل دور العبادة مصونة عزيزة فى بيت المقدس من مساجد وكنائس .

وتحرك كثير من رجال الدين فى العالم المسيحى ، يستنكرون العدوان على كرامة دور العبادة : تحركت أقطار تسود فيها الهندوكية والبوذية . . فى الهند وسيلان والشرق الأقصى ، وتحرك بعض الأحرار من اليهود الذين أدانوا هذا العدوان الصهيونى .

والحريق إلى جانب ذلك يمثل تحديـًا على المستوى السياسى والعسكرى : ماذا يستطيع العالم الإسلامى أن يقدمه فى هذا المجال ؟ هل مجرد مجموعة من البرقات والقرارات ــ احتجاجـًا أو تأييداً ؟ ــ وما مدى رد الفعل فى

العالم العربى عدوانـًا على مقدسات الإسلام ؟ إنها حالة «جس نبض» أو اختبار لمدى الفاعلية .

ويصل الخبث إلى أقصى درجاته ، حين يصبح لمتهم رجلا مسيحيًّا : أسترا ليا مهاجراً يؤمن أو يدعى أن الله أمره بالحريق . وبهذا يصبح القدس الشريف ملهاة فى أيدى أصحاب الرؤى ، الذين يمثلون أدواراً يختلط فيها الهزل المفضوح بالجد الذى يتحدى ثلاثين قرنـًا من الاستمرار الحضارى .

والحريق يمثل تحديـًا اقتصاديًّا : هل يستطيع العالم الإسلامى أن يمدّ الدول الصامدة على خطوط المواجهة بما تحتاج إليه المعركة اقتصاديًّا ؟ وإلى أى مدى ؟ ثم من قبل هذا : ما موقف الدول العربية التى لم تبذل حتى الآن فى معركة المصير شيئـًا ؟ هل تصمت تحت ضغط الاستعمار الجديد والنفوذ الصهيونى ، أم تتحرك محطمة هذه الأغلال ؟ وما مدى قدرتها على التحرك ؟ وكيف تتواكب هذه الجهود جميعاً مع جهود مخلصة فى المسيحى وكل محب للسلام فى العالم أجمع ؟

يبدو من هذا أن حريق المسجد الأقصى يمثل مرحلة جديدة عنيفة من مراحل الصراع بيننا وبين أعدائنا . . إنها قدرنا الذى علينا أن نقابله . والتحدى الذى علينا أن نتغلب عليه . . إنه مرحلة لا يمكن أن نفصلها عما قبلها وعما سيأتى بعدها . مرحلة تفرض علينا إلى جانب الإيمان العميق والعمل الدائب المتكامل ، وضوح الرؤية بحيث لا تغيب عنا - فى ثورة الغضب وحرقة الألم - مواقع أقدامنا على طرق النضال الدامى .

وأود أن أقول لكم إن المجلس الأعلى للأزهر الشريف قد عقد مساء أمس اجتماعـًا شاملا سبقه فى الصباح اجتماع تمهيدى لوضع الخطوط الرئيسية لاجتماع المساء .

وانقسم الاجتماع الشامل إلى جلستين : الأولى علنية صدر عنها بيان باسم الأزهر الشريف تأييداً للسيد رئيس الجمهورية فى خطابه التاريخى الذى وجهه إلى قواتنا المسلحة وعهداً على السير فى طريق النضال ، ودعوة الشعوب العربية والإسلامية إلى مساندة ما يقوم به أبناء هذه الأرض الطيبة من المسلمين والمسيحيين من أجل الحفاظ على المقدسات الإسلامية وتراث الإنسانية فى مدينة السلام وفى الأرض التى بارك الله فيها ، ثم جلسة مغلقة يحدد فيها الأزهر الخطوط الرئيسية لواجباته فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل نضالنا . وقد رفع المجلس هذه الخطوط إلى السيد الرئيس وقدمها إلى الوزارات التى تتصل أعمالها بأعمال الأزهر .

وأود أن أقول لكم أيها الإخوة من أساتذة الأزهر ، والأبناء من طلابه أن علينا واجبات ثقيلة فى هذه المرحلة :

سنتسلح أولا بالعلم والتنظيم الدقيق فلا يكون تسلحنا بالعاطفة وحدها مع كرامتها على الله وعلينا . ستدخل دروس عن بيت المقدس فى برامج الجامعة فى كلياتها جميعـًا وعلى مستوى التعليم الثانوى والإعدادى بالأزهر الشريف .

سنتعاون جميعـًا فى مجال التدريس لأبنائنا ، وإنه ليشرفنى أن أكون

أحد العاملين فى التدريس بالأزهر الشريف ابتداء من هذا العام وسيكون الدرس الأول عن القدس الشريف .

ستتحول طاقات شبابنا خارج قاعات الدرس إلى خدمة المعركة فى أعلى درجة من درجات الفاعلية .

الشعار الذى سنرفعه جميعاً هو « إلى بيت المقدس » . . وهو شعار يفرض علينا – على المستوى المحلى والعربى والإسلامى والعالمى – واجبات ضخمة داخل الجامعة وخارجها . وكل هذا ينبغى أن تنتظمه خطة متكاملة على كل فرد منا نصيب يقوم به فيها .

وأود أن أقول لكم إن اللجان الفرعية المنبثقة من المجلس الأعلى للأزهر تقوم بوضع هذه البرامج متعاونة فى هذا مع هيئات الأزهر والوزارات المعنية .

ولكنى أحب أن أحذر نفسى وأحذركم من فورة اندفاع لا تتحول إلى واجب مستمر طويل . . وهذا تحذير تعلمناه – من رسولنا (ص) فعن عبدالله بن عمر قال :

قال رسول الله (ص) : « إن لكل عمل شرة (اندفاعاً) وإن لكل شِرَّة فترة (ضعفاً) فمن كانت شرته إلى سنتى فقد أفلح ، ومن كانت شِرته إلى غير ذلك فقد هلك » .

ويرويه الإمام أحمد فى مسنده عن عبدالله بن عمر فيقول : ذكر لرسول الله (ص) رجال يجتهدون فى العبادة اجتهاداً شديداً : فقال : «تلك ضراوة الإسلام وشرته ، ولكل ضراوة شِرَّة ولكل شرة فترة ،

فمن كانت فترته إلى اقتضاء وسنة فلأم ما هو (الأم قصد الطريق المستقيم) ومن كانت فترته إلى المعاصى فذلك الهالك » .

ومن قبل هذا دعانا ربنا إلى الصبر فقال : « يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون » (آل عمران : ٢٠٠) . ويقول: « وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ » (السجدة : ٢٤) ويقول سفيان الثورى فى شرحها لما تمسكوا برأس الأمر (وهو الصبر) جعلهم الله رءوساً . (ابن القيم : عدة الصابرين).

ينبغى علينا إذن أيها الإخوة أن نحافظ على هذه العاطفة قوية مشبوبة فى نفوسنا ، وأن نعمق لها مسالكها العملية فى حياتنا فلا تتحول إلى دخان يتصاعد فى الهواء كما ينتظر أعداؤنا . . عاطفة يحكمها العقل ، وعقلٌ تذكيه العاطفة . وعمل دائب لا ينتهى حتى نصلى فى المسجد الأقصى ، و يتقبلنا الله شهداء على طريق النصر .

إن هذه النار التى اشتعلت فى بيت المقدس ، إنما اشتعلت فى قلوبنا جميعاً ، وستظل مشتعلة حتى نعود إلى القدس وتعود القدس إلينا . . هذا هو الهدف الذى حدده السيد الرئيس والذى يعبر عما فى نفوسنا جميعاً .

ومن هذا المكان المبارك — من رحاب الأزهر الشريف — نرفعها إلى الله دعوة خالصة أن يرضانا جنداً فى هذه المعركة المقدسة ، معركة

نصون بها تراثنا وتراث الإنسانية من الحكم العنصرى الهمجى الإسرائيلى واضعين نصب أعيننا قول الله تعالى: « وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُه وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلاَّ إيمَاناً وتَسْلِيماً » (الأحزاب : ٢٢) . وقوله تعالى « وكَأَيِّن مِّنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَما وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وما اسْتَكانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وما كانَ قَوْلُهُمْ إلاَّ أَنْ قَالُوا : رَبَّنا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (آل عمران : (١٤٦ – ١٤٨)

ودعوة إلى الله أن يبارك فى قائدنا السيد رئيس الجمهورية وأن يجمع قلوب ملوك المسلمين وحكامهم وكل محبى السلام حول هذه القضية الإنسانية محاربة لسلطان الظلام .

ودعوة إلى الله أن يبارك فى قواتنا المسلحة على خطوط المواجهة قائلين لهم : إنا معكم دائمًا بجهودنا وأرواحنا وأموالنا . وإن القاعدة الشعبية من ورائكم سبيكة واحدة صهرتها المحنة وعاهدت ربها على استرداد الحق السليب والأرض المغتصبة والمسجد الأقصى المحترق .

وتحية إلى إخواننا الفدائيين الذين ينطبق عليهم ما حفظناه عن نبينا : (ص) أحب العباد إلى الله الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا وبهم تنجلى كل فتنة عمياء .

تحية لهم تتحول إلى دعم صادق للجهد الفدائى ، هذا الجهد الذى اتخذ من نكران الذات والتضحية شعاراً . . مهاده الصخور وتسبيحه النضال . إليهم تحية حيث يكونون : طلائع قوية نظيفة طاهرة ، تعمل لله صابرة محتسبة . . كل ما ترجوه أن تعيد السلام إلى أرض السلام .

تحية إلى كل عامل فى كل موقع من مواقع الإنتاج والخدمات يربط بين جهده وبين المعركة قائلين لهم ولأنفسنا : ندعو الله أن يجعلنا حيث يجب أن يرانا .

ودعوة إلى الله أن يتقبل شهداءنا فى مستقر رحمته وأن يجزيهم عنا الجزاء الأوفى .

أيها الإخوة والأبناء فى الأزهر الشريف . . إنه طريق طويل ، وعمل كثير ، ومسئولية كبيرة ، وتحد رهيب . نسأل الله معهأن يرضانا أهلا لتحمل تبعاته ، فنحن المحتاجون إلى ربنا : له عباد غيرنا ،وليس لنا رب سواه ؛ فتوجهوا إلى الله بدعواتكم ، وتقربوا إليه بالعمل الواعى والإخلاص البصير ، داعين الله أن يكتب لنا كرامة الصلاة فى بيت المقدس وأن يرضانا جنداً فى المعركة المقدسة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

نظرة الإسرائيليين إلى أنفسهم وإلينا

منذ دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس فى عام ١٥ هـ (٦٣٦ م) ، لم تشاهد المدينة إشعال النار فى دار عبادة فيها إلا عام ١٩٤٨ عندما قذف الصهيونيون كنيسة القيامة بالقنابل الحارقة فأشعلوا فيها النيران ، وسارع أهل القدس – من مسيحيين ومسلمين – إلى إطفائها ، كما أصيب المسجد الأقصى فى العام ذاته عدة مرات بإصابات مباشرة من مدفعية العدو ، أما الحرق المدبر الذى يستهدف القضاء على المسجد كله فأمر لم تجرؤ عليه إسرائيل قبل ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٩ .

نظرة إسرائيل إلى المساجد والكنائس :

وإذا كان الإسلام يعتبر اليهود والنصارى أهل كتاب بنص القرآن الكريم ، ويجعل الإيمان بموسى وعيسى جزءاً من الإيمان بالرسالات والنبوات جميعاً ، ويؤكد هذا فى أكثر من موضع فى كتاب الله ، فإن اليهودية – كدين معاصر – لا تعترف بالمسيحية ولا بالإسلام . ومن أجل ذلك لا ترعى حرمة هذه الأماكن المقدسة . .

وقد يستطيع المتدين أن يستمد احترامه لدار العبادة من الوظيفة الاجتماعية التى تقوم بها ، ومن تقدير أهلها لها ، ومن القداسة التى تتمتع بها عندهم ، وإن كان لا يعترف بالدين نفسه . والنماذج على

هذا كثيرة فى الشرق الأوسط والأقصى . . فلقد هز حريق المسجد قلوب المؤمنين بالدين من حيث هو دين ، وبالعبادة من حيث هى عبادة ، والتقى المسلمون والمسيحيون فى وطننا العربى على الاستنكار الكامل لهذا العدوان ، وساهموا معا فى عقد مؤتمرات محلية وإرسال بعوث خارجية والاحتجاج على ذلك عالميًّا فى إخاء عاشت به مصر من قديم . .

وحدث الشىء ذاته فى الشرق الأقصى عندما احتج رجال السياسة والدين من الهندوكيين والبوذيين فى الهند وسيلان ، على حريق المسجد الأقصى ، معبرين عن مشاعر الألم العميقة للعدوان على مسجد له كل هذه القداسة فى نفوس أبنائه .

بل إن هذه المشاعر امتدت إلى عالم الغرب ، فأعلن مجلس الكنائس العالمى عن ألمه لما أصاب المسجد الأقصى بعد حريقه ، كما أعلن قبل الحريق عن حق الفلسطينيين فى الحياة آمنين فى وطنهم ورصد بعد هذا ميزانية خاصة لإعانة اللاجئين . .

وجاءنى فى وزارة الأوقاف بعض المسيحيين من فرنسا يعرضون جهودهم فى التعاون مع المسلمين : صيانة للمسجد الأقصى وتعاوننا فى عمارته .

لا بد إذن من أحد هذين المصدرين أو كليهما ليقوم فى نفس الإنسان احترام لدار العبادة سواء كان يؤمن بهذا الدين أو لا يؤمن به .

ولكن القضية مع إسرائيل أنها لا تؤمن بغير اليهودية ولا تحترم

غير اليهودية ، كما عبرت عن هذا عمليًّا بحرق المسجد الأقصى ، وضرب كنيسة القيامة وسرقة تاج العذراء ، والاستيلاء على مسجد الخليل ، وعلى مئات غيره من المساجد هدمـا وتخريبـا أو تحويلا إلى دور عبادة لهم .

إسرائيل والتفرقة العنصرية :

وإذا كانت هذه نظرة إسرائيل إلى غيرها من الأديان ، فهى تتفق تمامـا مع نظرتها إلى غيرها من البشر . .

والأدلة على هذا من النصوص اليهودية نفسها . . هذه النصوص التى يقول فى شأنها بن جوريون : ما دامت هناك توراة فلا بد أن يكون هناك شعب التوراة ، ما دام هناك شعب التوراة ، فلا بد أن يكون هناك أرض التوراة . فمن هو شعب التوراة كما تصوره التوراة ؟

وأعود فأذكر ما تعلمناه فى الإسلام من احترام جوهر الأديان من الإيمان بالله والجزاء والعمل الصالح . وهى الأركان الثلاثة المشتركة فى الأديان جميعـا . وما علّمنا ربنا فى قوله : «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنَا غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » . (البقرة : ٢٨٥) .

١ ــ وقصة الإنسانية ــ كما توضحها التوراة ــ تبدأ بقصة دآم

ثم قصة ابنيه وكيف قتل أحدهما الآخر وهام القاتل فى الأرض ملعونًا من الخالق . .

٢ – ورزق آدم بإبن ثالث هو شيث وهو الأب الأعلى لمن عمروا الأرض . . ويتتبع سفر التكوين ذرية شيث حتى نوح وطوفانه فتفنى البشرية إلا نوحـا وأولاده الثلاثة سام وحام ويافث . . وكما قام سفر التكوين بتصفية أبناء آدم إلى نوح قام بتصفية أبناء نوح أيضًا . . فحام يخرج من عداد الأسرة نتيجة خطأ ارتكبه ابنه كنعان . . « ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته . وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم ، ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم » (تكوين ٩ : ٢٥ – ٢٧) .

والكنعانيون هنا مقصودون لذاتهم . . لأنهم أصحاب فلسطين ، التى تتجه إليها أنظار إسرائيل . . وهكذا تحل اللعنة بحام وذريته . . أصحاب الأرض ، أما يافث فقد اتجه شرقـا وغاب عن مسرح الأحداث وبقى سام وحده . . ثم تأتى تصفية أخرى .

٤ – ويبرز اسم إبرام (إبراهيم) وابن أخيه لوط . . وتصور التوراة فى وضوح كيف ضاجع لوط ابنتيه بعد أن أسكرتاه فى ليلتين متواليتين (تكوين ١٩ : ٣٠ – ٣٨) وأنجب من الأولى موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم ، والصغيرة أيضًا ولدت ابنـًا ودعت اسمه بن عمى ، وهو أبو بنى عمـّون إلى اليوم (تكوين ١٩ : ٣٦ – ٣٨) .

والموآبيون وبنو عمون من أشد الشعوب حربـًا على بنى إسرائيل ،

وطالما أنزلوا بهم الهزائم . . فلا بد إذن من تلطيخ أنسابهم وإخراجهم من رحمة الله هم وأولادهم « لا يدخل ابن زنا جماعة الرب حتى الجيل العاشر ، لا يدخل أحد منهم جماعة الرب » (تثنية٢٣ : ٢ – ٣) .

٥ – وبهذا ألحق بنو إسرائيل الأذى والإذلال بكل سلالة غير إبراهيم . . فلننظر ماذا صنعوا به وبأبنائه :

(ا) لقد مدحوا إبراهيم وعقدوا بينه وبين الله ميثاقـًا « لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » (تكوين ١٥ : ١٨) ثم جعلوا إسحق ابنه الوحيد (تكوين ٢٢ : ٢) كأن إسماعيل – وهو ابن جارية من مصر – لا وزن له ولا مكان . . ثم طعنوا فى إبراهيم عندما ذكروا رحلته إلى مصر وقوله عن زوجته إنها أخته (تكوين ١٢ : ١٤ – ١٩) .

(ب) وتسير القصة بعد هذا جيلا آخر لتصل إلى ولدى إبراهيم : عيسو ويعقوب ، فماذا يفعلون ؟

عيسو هو الابن الأكبر وله عند أبيه مكانتان : البكورية والبركة . وهم أبناء يعقوب ، فلا بد من طريقة يزاح بها عيسو من الطريق وتأخذ القصة مرحلتين :

الأولى : أن يأتى عيسو يومـًا جائعـًا إلى أخيه يسأله طعامـًا ، فيبخل عليه يعقوب بطعام إلا أن يبيعه بكوريته . . . هكذا يتعامل الأشقاء . . بل يتعامل إسرائيل نفسه . . (تكوين ٢٥ : ٢٩ – ٣٤) .

الثانية : تتقدم السن بإسحاق وتكل عيناه ويطلب ابنه عيسو

ليباركه .فيلبس يعقوب ثياب أخيه ويأخذ البركة من أبيه لنفسه ، وعندما يشكو عيسو لأبيه إسحق يغضب ويدعو عليه . . هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك ، وبلا ندى السماء من فوق وبسيفك تعيش ، ولأخيك تستعبد . . (تكوين ٢٧ : ٣٩ - ٤٠) .

الحصاد المر :

ويفوز يعقوب بحق البكورية والبركة ، ويصبح عيسو وأبناؤه ميراثًا له . . ويطلب إليه يهوه (رب اليهود) أن يغير إسمه إلى إسرائيل وذلك بعد أن صورت التوراة صراعًا بينه وبين يهوه فى ظلام الليل (تكوين ٣٢ : ٢٢ - ٢٩) .

هذه هى قصة إسرائيل كما ترويها التوراة فى سفر التكوين من بدء الخليقة . هم وحدهم شعب الله المختار وغيرهم مدنسون أو ملعونون ، وأى شعب يعترض مسيرة شعب الله المختار نحو الأرض المقدسة كأنه عندهم يعترض مشيئة الله .

معاملة غيرهم من الشعوب :

وينعكس هذا على أسلوب معاملتهم لغيرهم من الشعوب . .

إنهم يعيشون وبين أعينهم قول التوراة « لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » . . (تثنية ٧ : ٦) .

وإذا كانت هذه نظرتهم إلى من قبلهم من الأنبياء والمرسلين فنظرتهم إلى من بعدهم أقسى وأشد . . لا يعترفون بعيسى ومحمد عليهم وعلى جميع الأنبياء صلاة وسلام ، فضلا عما يقولونه فيهم وفى مريم من بهتان عظيم رد عليه القرآن الكريم بقول الله تعالى :

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلا . وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً » (النساء : ١٥٥ — ١٥٦)

معاملتهم للشعوب يوضحها ما جاء فى سفر يشوع عن مدينة أريحا (٦ : ٢١ — ٢٤) « حرموا (أى قتلوا) ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . . . وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار » .

العهدة العمرية :

وأترك هذا التاريخ الدامى كله لأعود إلى بيت المقدس فى العام الخامس عشر للهجرة وطلب أهلها أن يكون تسليمها للخليفة نفسه بعد حصار دام أربعة أشهر ويعطى عمر أهلها وثيقة الأمان المعروفة بالعهدة العمرية وتقرأ فيها :

« هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .

أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم - ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود » . .

وعاش أهلها من مسيحيين ومسلمين على الإخاء والمرحمة والمحبة ، يتعاونون فى تعميرها وحراسة دور العبادة فيها ، يتنفسون السلام فى بلد السلام ، ويهدونه إلى الدنيا نموذجًا لاحترام دور العبادة وكفالة أمن العابدين فيها . ينطلق المسيحى من دينه الداعى إلى المحبة ، محبة تراها فى حياة المسيح عليه السلام والذين اتبعوه بإحسان ، وينطلق المسلم من القرآن الداعى إلى الإيمان بكل نبى ورسول أرسله الله والذى ترجمته حياة الرسول عليه الصلاة والسلام فكان قرآناً حيًّا يسير على قدمين ، وعلى هداه سار المؤمنون به والحافظون لحدود الله . .

بين يدى المسجد الأقصى :

تجمعت فى نفسى هذه المعانى كلها فى ذكرى الإسراء والمعراج ، وعدت إلى الرسول الأعظم وقد جمعته فى هذه الليلة المباركة مع جميع الأنبياء صلاة . . ثم عرج به ربه إلى السماوات العلى ورأى من آيات ربه الكبرى . . ليلة تمثل الإخاء الإنسانى فى أروع صوره فى لقاء أنبيائه . . وفى حديث الرسول إلى كل منهم حديث الأخ إلى أخيه . .

ودعوة إلى الإنسانية أن تعيش هذا الإخاء وأن تدافع عنه . .

وذكرت إخواننا على خطوط المواجهة فى جبهة القتال والجبهة الشرقية والفدائيين الذين يعملون فى صمت مؤمن . . وجهود العمال والفلاحين والعلماء والتجار الذين يمدون معركتنا المقدسة مع عدونا . . والذين سبقونا إلى الله شهداء معارك تدور من أجل المسجد الأقصى ودفاعاً عن حرمة الأديان والأوطان ، استرداداً لمقدساتنا وأرضنا السليبة . .

وكيف أن دعواتنا الآن قد أصبحت عملا وتسبيحنا جهاداً وتقربنا إلى الله تضحية ، وراحتنا الحقيقية فى إخلاصنا فيما بين أيدينا من مسئوليات . مؤمنين دائماً بقول الله : « وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (الأنفال : ١٠) وقوله : « فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِّنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ »(آل عمران : ١٩٥)

جوانب من الحرب النفسية
القوى الاجتماعية فى قاعدة الإسلام*

(١)

تحية :

تحية طيبة مباركة فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان داعياً الله وسبحانه وتعالى أن يزيدنا فيه إيماناً وعلماً وعملا واقتراباً من أهدافنا تطهيراً لمقدساتنا السلبية ، ليعود السلام إلى أرض السلام . .

لقاء :

ولقد تعودنا أن نلتقى فى هذا الشهر المبارك ، نتدارس أمر ديننا ونربط ما بينه وبين حياتنا . . وما أظن ، أنى فى هذه الأحاديث سأقدم وقائع جديدة من حياة الإسلام ومصادره . . فمصادر الإسلام من الكتاب والسنة وأمهات كتب تاريخنا معروفة تمام المعرفة منذ وقت طويل . وقد تولى علماؤنا جمعها ونشرها وتحليلها ومقارنتها فى دقة لا نكاد نجد لها نظيراً .

* الأهرام فى غرة رمضان ١٣٨٩ هـ (١١/١١/١٩٦٩م) .

قاعدة الإسلام فى المدينة :

ولكن تبقى جوانب أخرى تحتاج منا إلى عناية وبحث . وأقصد – على وجه الخصوص – ما يتعلق بالتطور الاجتماعى لأرض الإسلام من وقت أن أقام الرسول عليه الصلاة والسلام قاعدة الإسلام فى المدينة . . فكانت أول « دولة » ينشئها رسول الله من أولى العزم فى حياته . . . وكانت التطبيق الحى المباشر لوحى الله . . بينما تأخر تكوين الدول الأخرى – على أساس الدين – فترات طويلة بعد نزول الوحى على الرسل . . ونستطيع أن نرى نماذج كثيرة على ذلك من حياة الأنبياء السابقين ، عليهم جميعًا الصلاة والسلام . .

أبعاد المعركة :

وفى دراستنا للتطور الاجتماعى ، وللتفاعلات الاجتماعية فى هذه العصور ، سنرى جوانب قوية من الربط بين الماضى والحاضر ، وسنستطيع – إن شاء الله – أن ندرك فى وضوح أن حياتنا ومعركتنا مع إسرائيل ومن وراءها ، هى قطاع زمنى من تدفق تاريخى طويل ، سبقته معارك ضارية طويلة ، كان مجتمعنا يواجه مشكلات داخلية وخارجية ، اجتماعية وسياسية واقتصادية ، إلى جانب تأصيل العقيدة فى نفوس أبنائه ليخوضوا المعارك بقوتين من العقيدة والجيش ، على أساس

من قاعدة اقتصادية صلبة تستطيع أن تمد المعركة بطاقاتها المادية والبشرية .

والمعركة بذلك متعددة الجوانب . . كل أجزاء الوطن ميدانها ، وكل طاقات أبنائه عدتها وكل جهودهم على الصعيدين المحلى والعالمى ، ينبغى أن يكون مدداً لها .

هذه هى حقيقة التواصل بين الفرد والمجتمع من ناحية ، والدين من ناحية أخرى ، هى « البر » بمدلوله الشامل الذى حددت الآية الكريمة أبعاده فى قول الله تعالى : « لَيْسَ البرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْملائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَساكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقابِ ، وَأَقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِى البَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وحَينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ » (البقرة : ١٧٧)

إنه الشمول الذى يضم العقيدة فى امتدادها الزمانى إيماناً بجميع الأنبياء والمرسلين كما يضم اليوم الآخر ، وهو بهذا ، يدعم الروابط بين الفرد وأسرته ومجتمعه بروافد من البر والمرحمة ، ويحشد طاقاته جهاداً من أجل

أمته وتقدمها ودفاعًا عنها ضد أى غاصب . ويعتبر هذا هو الصدق فى الإيمان وحقيقة التقوى .

التفاعل الاجتماعى :

والطريق لتحقيق هذا كله ليس سهلا معبدًا ، ولكنه طويل – على طول الزمن وامتداد الآفاق – يلقى السائرون فيه من قوى العدوان والمقاومة ما يجعل التطور بطبيعته تفاعلا مستمرًّا بين هذه القوى المتعارضة :

«وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ» (البقرة : ٢٥١)

ونفس القانون الاجتماعى – قانون التدافع – نستطيع أن نقرأه فى آيات أخرى من سورة الحج توضح واجب المهاجرين بعد ذهابهم إلى المدينة وحقهم فى العودة ونشر السلام والإسلام :

«إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ، أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ

اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ »
(الحج : ٣٨)

ثم يربط ربنا بعد هذا بين النصر وإقامة الحياة على أساس من العدل والبر والتقدم فيقول : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ » (الحج : ٤١) والمعروف هنا يشمل كل ما يتقدم به المجتمع من خير ، والمنكر يشمل ما يعوق مسيرته إلى غده المأمول .

نحن إذن بحاجة إلى دراسة جوانب من هذه التفاعلات الاجتماعية فى صدر الإسلام ، وبخاصة فى قاعدة الإسلام الأولى فى المدينة ، القاعدة التى تكونت والوحى ينزل من عند الله والرسول الأعظم يتلقاه ، ومن حوله صحابة من مهاجرين وأنصار تتعلق عيونهم وقلوبهم به ، وتلتقط آذانهم كل كلمة تصدر عن رسول الله فى حقه :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » (الأحزاب : ٢١) يتأسون به فى أقواله وأفعاله وتقريراته . . يصلون معه فى المسجد ويخوضون معه المعارك . . أشداء على الكفار رحماء بينهم .

القوى المضادة :

ولم يكن هذا الصف يعيش وحده فى مجتمع المدينة . . لقد كانوا يخالطون اليهود على تعدد قبائلهم وتنوع أساليب حربهم ضد الإسلام . . والمنافقين بصلاتهم المريبة بمجتمعات اليهود من ناحية ، وقريش من ناحية أخرى ، والروم فى الشمال . .

والجبهة الداخلية الإسلامية كانت تتعرض لهذه الضغوط من الحرب الساخنة والحرب النفسية : عدوانـًا مسلحـًا مرة . . وتشكيكـًا فى القيادة مرة . . ومحاولة لتمزيق وحدة المهاجرين والأنصار ، أو الإيقاع بين شطرى الأنصار الكبيرين : الأوس والخزرج . . وانسحابـًا من المعارك بعد الخروج إليها ، وإشاعة لجو من الذعر والفزع فى المدينة . .

بين الماضى والحاضر :

كل هذه نماذج من الحرب النفسية فى قاعدة الإسلام نستطيع أن نجد معابر بينها وبين الواقع الملتهب الذى نعيشه ، والمعركة المصيرية التى ترتفع أمواجها وتتصاعد مراحلها . .

وفيما لقيه الرسول والذين معه من العنت والإرهاق ، ما يمسح عن وجوهنا وقلوبنا بعض ما نلقى على الطريق ، وفى جهادهم وصبرهم النور الهادى الذى يكشف لنا من أبعاد العمل ما يزيدنا إلى النصر اطمئنانـًا . .

هذا هو الخط الفكرى الذى أرجو أن أتبعه فى هذه الأحاديث إن شاء الله . داعيـًا الله فى مطلع هذا الشهر الكريم ، أن يثبت على طريق النصر خطانا .

(٢)
تماسك الجبهة الداخلية *

قوى اجتماعية :

بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة أصبح توزيع القوى الاجتماعية فيها على النحو الآتى :

١ ــ الأنصار :

وأهم قبائلهم الأوس والخزرج . وكانت بينهما فى الجاهلية حروب وأيام دامية ، ارتبطت بتغيير فى الوزن الاقتصادى لكل من القبيلتين ، وغذتها أشعارهم فأصبحت جزءاً من تراثهم الفكرى وتكوينهم النفسى .

٢ ــ المهاجرون :

لم يكونوا جميعًا من مكة ، وإنما أقبلوا على الإسلام مؤمنين به من قبائل أخرى عاشت على ساحل البحر الأحمر وفى اليمن ونجد ومنطقة الخليج العربى ، كما اجتذب مؤمنين من خارج الجزيرة العربية من فارس وأرض الروم والحبشة . بعض هؤلاء كانت له مهارة اقتصادية استطاع بها أن يعيد تكوين ثروة ، بعد أن ترك وراءه ما جمعه فراراً إلى الله بدينه ، وعاش بعضهم فقيراً فى كنف المجتمع الجديد يرعاه إيمان إخوانه .

---

* الأهرام فى ٤ رمضان ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩/١١/١٤) .

٣ ــ قبائل اليهود :

وأهمها بنو قينقاع فى قلب المدينة ولهم نشاطهم الحرفى وبخاصة فى الصياغة ، وبنو النضير وبنو قريظة فى العوالى الجنوبية الشرقية . . وكان لليهود حصونهم التى بلغت على حسب رواية السمهودى تسعة وخمسين ، ولهم أرضهم وزروعهم وموارد مياههم والمواقع الحاكمة التى يسيطرون بها على الجبهة الجنوبية للمدينة ، وعلاقاتهم السابقة مع الأوس والخزرج وصلاتهم بقريش .

٤ ــ المنافقون :

الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا غيره ، وكانت لهم مصالحهم السياسية والاقتصادية التى حاربها الإسلام ، وتطلعاتهم التى قاومها المجتمع الجديد ، وعلى رأس هؤلاء جميعًا عبدالله بن أبىّ ابن سلول الخزرجى ، الذى كانت زعامة المدينة قريبة من يده قبيل هجرة الرسول إليها .

تناقضات داخلية :

ومن المنتظر أن يكون هناك تفاعل بين هذه القوى وتناقضات تحاول القوى الضاغطة على قاعدة الإسلام استغلالها ــ إن استطاعوا ــ هدمًا وتحطيمًا للجبهة الداخلية ويمكن أن تتجه هذه الضربات إلى :

١ ــ العلاقة بين الأوس والخزرج ، بعد أن أخرجهم الله من

صراعات الجاهلية وحروبها إلى أخوة الإسلام ومحبته .

٢ ــ العلاقة بين المهاجرين والأنصار بعد أن بذل الأنصار من إخائهم الكريم ما سجل الله أمره فى كتابه : «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ ولا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (الحشر : ٩)

٣ ــ العلاقة بين الأنصار والذين أسلموا بعد فتح مكة وهم الذين أطلق عليهم مؤرخونا اسم « مسلمة الفتح » ويكونون قوة جديدة لها طابعها المتميز عن قدامى المهاجرين ، الذين اختلطت دماؤهم بدماء الأنصار فى المعارك ، وذاقوا معـًا حلو الحياة ومرّها ، دفاعـًا عن قاعدة الإسلام فى المدينة ونشراً للعقيدة خارجها .

٤ ــ العلاقة بين القيادة والقاعدة بقطاعاتها المتعددة ، استغلالا لهذه التناقضات ، وقد تصل الحرب إلى محاولة التخلص من القيادة ، كما حدث أكثر من مرة بالحرب السافرة و المؤامرات الخفية أو التشكيك فى مقدرة القيادة وعدالتها .

٥ ــ التشكيك فى العقيدة نفسها وهى الأساس العريض الذى قام عليه المجتمع الجديد، والمنطلق الذى يبذل من أجله المسلمون أنفسهم وأموالهم .

٦ – التشكيك فى قدرة القاعدة – حتى فى اجتماعها – على مغالبة الخصم والانتصار عليه ، وبذر بذور الشك والريبة فى نفوس العاملين فى القاعدة ، و المجاهدين فى الجبهة ، وفتح أبواب جانبية تتسرب منها طاقة العاملين بدلا من تجمعها فى تيار قوى موحد يوجه طاقاتها جميعاً نحو الهدف الكبير .

قوى ضاغطة :

وإذا كانت هذه أبرز المجالات التى تتجه إليها الحرب النفسية فى قاعدة الإسلام فى المدينة ، فلقد كان على هذه القاعدة أن تحدد القوى الضاغطة التى تحرك هذه التناقضات أو تثير الشبهات . وأهم هذه القوى :

١ – قوة المنافقين من الأوس والخزرج وبعض من حول المدينة من الأعراب : وهؤلاء يخالطون المسلمين فى حياتهم اليومية ، ويخرجون معهم – أحياناً – فى بعض المغازى ولهم بذلك قدرتهم على شن أساليب من الحرب النفسية فى القاعدة والجبهة ، ولهم صلاتهم باليهود وقريش والروم .

٢ – قوة اليهود : بما لهم من وزن اقتصادى فى مجالات الصناعات الحرفية والزراعة والتجارة الخارجية ومكانتهم العلمية وحصونهم . . وارتباطهم بالمنافقين وقريش وإخوانهم من اليهود الذين يعيشون إلى الشمال فى خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء . .

٣ – يرتبط بهذا كله ويغذيه ويوجهه مساعدة قريش فى مكة ، ولها صلاتها بهذه القوى وما وراءها فى أرض الروم . . ولها قدرتها على تعبئة كل القوى المضادة من قبائل الساحل ونجد ، فى الوقت الذى تستطيع فيه الاتصال بالمنافقين واليهود والروم فى الشمال ، وهى تتحرك على خطين من الحرب الساخنة والنفسية . . وفى الوقت ذاته تبذل جهودها فى الحصار الاقتصادى وعلى الصعيد السياسى لتحطيم قاعدة الإسلام والقضاء على قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه القوى المؤمنة .

مسئولية الجبهة الداخلية :

ولقد كان على الجبهة الداخلية أن تعى أبعاد هذا التآمر كله ، وأن تصمد له وأن ترتفع فوق الصمود إلى المبادأة . . وتتحرك على المستويين المحلى والخارجى . . فى مجالات الاقتصاد والسياسة والحرب على أساس من التكوين العقائدى السليم ، والحل السريع المباشر للمشكلات التى تنجم عن تطور الحياة فى القاعدة وصراعاتها الداخلية والخارجية .

كان عليها أن تقابل المشكلات الداخلية والخارجية فى آن واحد . .

كان عليها أن تخوض الحرب الساخنة والنفسية . .

كان عليها أن تحارب وأن تبنى وأن تظل دائمًا مركز الإشعاع الهادى الذى يجتذب أكرم العناصر من الجزيرة العربية وخارجها لتشارك فى زحف الإنسانية الكبير المنطلق من القاعدة المؤمنة فى المدينة .

بين الأوس والخزرج :

ولنبدأ بعرض أساليب الحرب النفسية مع عناية بتحليل الأحداث والمناهج التى اتبعتها القوى الضاغطة فى هذه السبيل .

فلقد كان من الجوانب الرئيسية التى اتجه إليها الضغط ، طبيعة العلاقة بين الأوس والخزرج . فمن الناحية التاريخية كانت هناك حروب وثارات وأحقاد . كانت هذه الحروب واقعاً تاريخياً لا جدال فيه فكيف استطاع اليهود استغلال هذا الواقع التاريخى لضرب الجبهة الداخلية ؟

يحدثنا ابن هشام فى سيرته عن اليهودى شاس بن قيس وكان شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم . . ويروى أنه مر يوماً على جمع من الأوس والخزرج « فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة (أى الأوس والخزرج) بهذه البلاد . لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار »

وأمر شاباً يهودياً كان معه فقال :

اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله (وهذه أيام حروب الأوس والخزرج فى الجاهلية) وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من أشعار . . ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى قالوا : تعالوا نرد الحرب جذعاً كما كانت ، وتنادي

الأوس والخزرج واصطفوا بسلاحهم ، وخرج الرسول إليهم مسرعـًا حتى وقف بين الصفين يقرأ عليهم قول الله تعالى : « يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ » (آل عمران : ١٠٠) فما فرغ الرسول من قراءته حتى ثاب القوم إلى رشدهم ، وألقوا سلاحهم وعانق بعضهم بعضـًا .

إن القوم هنا لم يكفروا بالله ولا برسوله ولا بالقرآن . . وإنما كادوا أن يكفروا بوحدتهم فكانت الوحدة تعبيراً عن الإيمان ، والخروج عليها طريقاً إلى الكفر .

(٣)

محاولات للإيقاع بين المهاجرين والأنصار [1]

وتتسع دائرة الحرب النفسية لتشمل محاولات المنافقين الإيقاع بين القوتين الإسلاميتين الكبيرتين : المهاجرين والأنصار .

والنموذج الذى سنعرضه يرجع — على الرأى الراجح — إلى سنة خمس بعد الهجرة ، قبل غزوة الخندق ، وإن ذهب بعض المؤرخين إلى أنها بعدها .

وكانت جزءاً من سلسلة المؤامرات التى شنتها القبائل الموالية لقريش .. استدراجاً للمسلمين وقتلاهم بعد غزوة أحد . .

وقريش وراء ذلك كله تحيك المؤامرات وتتصل بالمنافقين فى داخل المدينة وخارجها وقبائل اليهود . . ووسط هذا كله تبرز محاولات المنافقين من الخزرج ضرب الإخاء القوى بين المهاجرين والأنصار .

غزوة بنى المصطلق :

وتأتى الرسول أنباء أن بنى المصطلق يجمعون له جموعهم فى المنطقة الساحلية . . هذا فى الوقت الذى تحاك فيه المؤامرات فى الأجزاء الداخلية من نجد شرقاً وفى الشمال والجنوب . .

---

(١) الأهرام فى ١٩ رمضان ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩/١١/٢١ م) .

ويتقدم الجيش الإسلامى بقيادة الرسول فينتصر .

فكيف يرضى المنافقون بهذا النصر ؟ ولما لا يثيرون قضية ، يحاولون بها إغراق هذا النجاح فى فتنة داخلية تعصف به وبتماسك الجبهة الداخلية .

ويحدث حادث يسير ، كثيراً ما تشاهده حياة الرعاة . . أن يتنازع اثنان على مورد الماء . . ونحن نعلم مكانة موارد المياه فى الحياة البدوية . . .

ويصرخ الأنصارى : يا معشر الأنصار .

ويصرخ المهاجر : يا معشر المهاجرين .

الوقيعة :

وكان من الممكن أن يزجرهم قادتهم وشيوخهم عن ذلك . . ولكن عبدالله بن أبى ابن سلول زعيم المنافقين ينتهز الفرصة فيرتفع صوته بين قومه من الأنصار :

ــ أو قد فعلوها ! ! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما عدنا وجلابيب قريش (فقراؤهم) إلا كما قال الأول : سمّن كلبك يأكلك . أما والله لـئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

فزعيم المنافقين بحديثه هذا قد أراد أن يثبت فى أذهان قومه :

١ ــ أن العلاقة بين المهاجرين والأنصار علاقة تنافر وتكاثر فى الفترة السابقة .

٢ ــ أن العلاقة المقبلة بينهما ستكون على أساس من إخراج القوى

للضعيف من المدينة .

وإذا كان الأمر كذلك فلتكن القوة للأنصار وليُخْرِجوا منها المهاجرين . .

ويتابع رأس المنافقين إثارة قومه قائلا :

– هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم ! ! .

خطة القائد :

ويصل الخبر إلى الرسول القائد يحمله شاب أنصارى مؤمن هو زيد بن أرقم ، وسرعان ما علم رأس المنافقين بذلك فجاء مسرعًا إلى الرسول منْكِراً ما حدث ، حالفًا بالله ما قلت ما قال ولا تكلم به . .

ويدخل فى الأمر بعض كبار الأنصار :

– يا رسول الله : عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل .

ويتخذ الرسول خطة يصرف بها أذهان القوم عن التفكير فى هذا الأمر ، أو مجرد القدرة على الحوار فيه . .

ويصدر أمره بالتحرك فوراً إلى المدينة ، فى ساعة كانوا لا يرحلون فيها ، ويلقاه أسيد بن حضير الأنصارى ويسلم على الرسول بتحية النبوة قائلا :

– يانبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة مبكرة ما كنت تروح فى مثلها .

فيقول الرسول : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟

فيقول أسيد : وأى صاحب يارسول الله ؟

قال : عبد الله ابن أبى ابن سلول . . زعم أنه إذا رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

فيقول أسيد فى إيمان : فأنت رسول الله تخرجه إذا شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز .

ثم يلقى أسيد بن حضير الضوء على الدوافع الحقيقية التى حركت عبدالله بن أبى ابن سلول إلى الفتنة ومحاولة الإيقاع بين المهاجرين والأنصار فيقول :

— يا رسول الله أرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا .

هذا هو السر الحقيقى : الطمع فى ملك المدينة .

وبتقدير عميق للموقف يدفع الرسول الجيش إلى السير المرهق الطويل يومهم حتى يمسوا ، وليلتهم حتى يصبحوا وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس . . فما نزلوا ووجدوا مس الأرض حتى وقعوا عليها نيامًا . .

وما استيقظوا حتى وجدوا مرحلة عنيفة من السير حتى بلغوا المدينة .

الوحى ينزل بتصديق زيد :

وينزل الوحى مصدقًا لما قال الشاب المؤمن . .

ولم يرد الله – وهو البر الرحيم – أن يترك هذا الفتى ، بعد أن نقل الخبر إلى الرسول القائد ، تتألب عليه قوى المنافقين تكذبه . . أو تتهمه بالوهم ، وما فعل إلا خيراً . .

وتنزل سورة المنافقين . تكذّب عظيم القوم عبدالله بن أبى ابن سلول والذين معه ، وتصدق الفتى المؤمن : زيد بن أرقم .

موقف المدينة من المنافقين :

ولقد كان من رأى عمر بن الخطاب أن يأمر الرسول بقتل رأس المنافقين ، ورأى أسيد بن حضير أن يترفق الرسول به . . ويصل ذلك إلى عبدالله بن عبدالله بن أبىّ وكان على الإيمان والإخلاص لربه ولرسوله ودينه . فيذهب إلى الرسول ونفسه موزعة بين إيمانه بربه ، وبرّه بأبيه ويقول :

– يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبدالله بن أبىّ فيما بلغك عنه . فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبىّ يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنًا بكافر ، فأدخل النار .

ويرد الرسول الذى وصفه ربه بقوله : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » قائلا :

– بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا . .

وكان إمهال الرسول لرأس المنافقين هذه المرحلة الدقيقة من حياة الدعوة الإسلامية تجربة بدت فيها سماحة الإسلام ، وصلابة القاعدة ، وانكشاف موقف نفاق زاد الناس كراهية فى عبدالله بن أبىّ ، والتفافًا حول الرسول القائد .

ويعقب الرسول على هذا كله قائلا لعمر بن الخطاب :

– كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله ، لأرعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

فيقول عمر بن الخطاب :

– قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

ويقضى الرسول على هذه الفتنة . . ويسلم له الإخاء الصامد بين المهاجرين والأنصار . ولكن كيف عرض القرآن هذه القضية فى سورة المنافقين ، مبينًا جانبًا من صفاتهم وأساليبهم فى محاولات التفرقة بين القوى الإسلامية ؟

(٤)

إذا جاءك المنافقون[1]

وحديثنا عن « سورة المنافقون » .

سندرسها أولا دراسة خارجية ؛ أى نضع السورة فى إطارها التاريخى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى من حياة المجتمع الإسلامى فى المدينة ثم ندرسها داخليًّا فنرى وحداتها الفكرية الرئيسية وارتباطها بالمجتمع . .

ويمكن أن نقدم للجانبين بمدخل موجز عن :

النفاق :

وكان من منهج علمائنا أن يبدءوا أولا بالتحديد اللغوى للكلمة ، فهو الأصل ومنه الاشتقاقات بعد ذلك . .

يقول ابن زكريا فى كتابه « مقاييس اللغة » (٥ : ٤٥٤ — ٤٥٥) النون والفاء والقاف أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على انقطاع الشىء وذهابه ، والآخر على إخفاء الشىء وإغماضه ؛ ومتى حصل الكلام فيهما تقاربا . .

فالأول : نفقت الدابة نفوقًا ماتت ، والنفقة (وهى المال المبذول) لأنها تمضى .

---

(١) الأهرام فى ١٩ رمضان ١٣٨٩ هـ (٢٩/١١/١٩٦٩ م) .

والأصل الثانى النفق : سرب فى الأرض له مخلص إلى مكان . . والنافقاء : موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا هوجم ضرب النافقاء برأسه فانتفق أى خرج . ومنه اشتقاق النفاق لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر فكأن الإيمان يخرج منه ، أو يخرج من الإيمان فى خفاء .

ويعقب ابن زكريا على هذا بقوله ، ويمكن أن يكون الأصل فى الباب واحداً وهو : الخروج

بين مكة والمدينة :

وتاريخيًّا ، لم يتضح النفاق فى مكة ، حيث الابتلاء الشديد فى الأنفس والأموال والزلزلة فى العقيدة . . وحيث تميز المعسكران فى وضوح : الكفر والإيمان ، وإن أشارت إلى النفاق بعض الآيات المكية .

ويرجع ذلك إلى أن المسلمين فى مكة لم يكونوا على درجة من القوة تدعو غيرهم إلى رهبتهم أو تملقهم أو التآمر عليهم سرًّا :

عندما أرادوا قتل الرسول عليه السلام اجتمعوا فى دار الندوة ، واتفقوا على أن يختاروا أربعين شابًّا قويًّا فيضربوا الرسول ضربة واحدة يضيع بها دمه فى القبائل . .

وعندما كانوا يؤذونه كانوا يفعلون هذا جهاراً دون خوف أو استحياء واضطر المسلمون إزاء ذلك إلى الهجرة إلى الحبشة أولا ثم إلى المدينة ثانيًا .

بينما الأمر مختلف فى المدينة ، فقد استطاع الرسول أن يكسب

أنصاراً أقوياء من الأوس والخزرج ، ولم يهاجر إلا بعد أن اطمأن إلى صلابة القاعدة فى المدينة ، وتجلى هذا واضحًا فى بيعة العقبة عندما أعطوه مواثيقهم على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، وأن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأموالهم . .

الإطار التاريخى :

وسورة المنافقون مرتبطة بغزوة بنى المصطلق أو غزوة المريسيع وهو اسم الماء الذى كان عليه الصراع بين المهاجرين والأنصار . وهذه الغزوة كانت بعد غزوة الأحزاب فى رأى ، فى حين يذهب البعض إلى أنها كانت قبلها . . والخلاف فى أنها كانت فى سنة خمس أو ست بعد الهجرة .

ولكن الذى يعنينا هنا هو الإطار التاريخى لهذه السورة . . إنها كانت فى ذروة خطرة من الصراع والمواجهة بين الإيمان من ناحية والكفر والنفاق من ناحية أخرى . .

فغزوة الأحزاب كانت أخطر ما تعرض له الإسلام من مواقف ، إن لم تكن أخطرها جميعـا وفيها تجمعت كل قوى الشر ضد الإسلام ، فى حصار رهيب حول قاعدته ، كاد أن يهدد المدينة كلها بالضياع .

فإذا كانت غزوة بنى المصطلق قبلها فهى جزء من الاستعداد لها ، وإن كانت بعدها فهى محاولة لضرب القاعدة من الداخل ، بعد أن أخفق الهجوم العسكرى الشامل .

سورة المنافقون إذَنْ تمثل تصاعداً خطِراً للصراع فى قاعدة الإسلام . .

وهذا الصراع امتد إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وحاول أن يستفيد من تجارب قريش بإيذاء المسلمين فى مكة قبل الهجرة ، وأن يستفيد – فى الوقت نفسه – من التناقضات الموجودة فى المجتمع الجديد الآخذ فى تذويب الفوارق بين المهاجرين والأنصار ، محاولا أن يشق أخدوداً فى هذه العلاقة يحطم بها المعابر بينهما .

فى حضرة الرسول :

وتبدأ السورة بقول الله تعالى :

« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » .

هم إذَنْ كانوا يحضرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيشهدون بين يديه برسالته بألسنتهم ، لا يقصدون بذلك إلا خديعة المسلمين . . . ألسنتهم تقول الصدق وقلوبهم تكذبه . . من أجل ذلك البيان الإلهى

المعجز تصديقاً لرسول الله فى قوله : « والله يعلم إنك لرسوله » وتكذيباً للمنافقين فى قوله : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . .

القرآن الكريم يبادر بتصديق الرسول قبل تكذيب المنافقين . . ولولا هذا الاحتياط المعجز بالتصديق قبل التكذيب لأوهمت الآية تكذيب إقرارهم ، فى حين أن الرسالة حق من عند الله .

وهذه الأيمان التى يحلفونها لن تزيد عن كونها ستاراً يختفون وراءه ، مستندين إلى ماض لهم فى الجاهلية ، ومنزلة لهم بين قومهم ، تجعل أيمانهم أقرب إلى التصديق منها إلى التكذيب . وهم فى مواقفهم تلك يغامرون بمنزلتهم ويجعلونها أسلحة فى صراعهم ضد المسلمين ، ليصدوا عن سبيل الله ، وليس بعد هذا غاية فى السوء . .

ويعقب القرآن الكريم على ذلك مبيناً الأساس الذى تنطلق منه أعمالهم : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » .

آمنوا قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . أو آمنوا أول مجيئه إليهم . ثم لما عجزوا عن أن يسيطروا على مقدرات المجتمع الجديد ارتدوا إلى مصالحهم الخاصة وتطلعاتهم فكفروا . . ولو كانوا بعيدى النظر سليمي القلوب لعلموا أن طريق الإيمان أولى . . وما دام الإنسان ينظر إلى قضايا مجتمعه من زاوية مصالحه ، فلن يكون حكمه إلا خاطئاً منحرفاً ، وهذا هو المقصود من قوله تعالى : « فطُبِع على قلوبهم » .

مظاهر خادعة :

ونسير مع السورة مرحلة أخرى: « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ».

أجسامهم وسيمة ربتها أموال الجاهلية وإمكانيات كانت لهم استطاعوا بها أن يكونوا بالمنظر المعجب والقول المنمق . . والآية بهذا تبرز أمرين :

١ — أنهم إذا جاءوا كان لهم هذا المنظر الداعى إلى التقدير .

٢ — أنهم إذا تكلموا كان لهم القول الداعى إلى الإقناع .

ومن الممكن — فى دنيا الناس — أن ينصرف الإنسان عن زائر زرىّ المنظر ، أو سيئ التعبير ، بل أن ينصرف عن زائر حسن المنظر فإذا تكلم أساء ، ولكن المنافقين كانت لهم صفات التأثير قبل أن يتكلموا وبعد أن يتكلموا .

ولقد وقف علماؤنا طويلا عند قول الله تعالى : « كأنهم خشب مسندة » : هى أجسام خالية من الإيمان . . فالخشب ينتفع به فى سقف أو حائط ، أما هؤلاء فلا نفع لهم . . فقال الله عنهم إنهم « خشب » لا ترتفع إلى المستوى الآدمى . . بل خشب مسندة . . فلا تحسب هذا الاستناد عظمة ومكانة وإنما هى أخشاب لا تقوم بنفسها .

وقالوا : إنهم كالأصنام المنحوتة ، حسنة المنظر جيدة الصناعة ،

ولكنها لن تزيد على ذلك : جمال منظر وقلة جدوى ، ولكن الآية تنقلنا نقلة ملفتة بقول الله تعالى : « يحسبون كل صيحة عليهم » فهم فى مجال الإيمان والصدق خشب مسندة وفى مجال الحرب أو المسئولية فى هلع وخوف بل إنهم ليظنون أى نداء إيقاعًا بهم وهتكًا لسرهم . .

تناقض واضح فى مواقفهم الظاهرة . . وهو تناقض ينبع من أصل واحد . . هو المكر بالإسلام وبذل الجهد فى الكيد له . . صمت فى مجال الإيمان وتوجس وهلع عند كل صيحة . .

وتبين الآية أن هذه هى صفات الأعداء . . أما المؤمنون فكما وصف الرسول الأنصار « تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » أى تكثرون فى مجال الحرب والمسئولية وتقلون عند الغنيمة .

استكبار بالباطل :

ومع كل هذه الأخطاء والتصرفات التى لا تخفى على مؤمن ، يدعوهم قومهم إلى العودة إلى رسول الله مستغفرين لما فرطوا فى جنب الله ، فماذا يكون موقفهم ؟ لنقرأ معًا قول الله :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الفاسِقِينَ » .

وهنا نجد مقابلة وتناقضًا بين موقفهم حين يكونون فى حضرة الرسول وحينما يكونون بعيدين عنه :

– فى حضرته يقولون : « نشهد إنك لرسول الله » .

– وعندما يكونون بعيدين عنه يستكبرون عن الحضور ليستغفر لهم الرسول .

لقد حضروا عندما رأوا شرًّا يوشك أن يحيق بهم ، ورأوا أن أمرهم قد انكشف أو قارب فهم يسارعون بأنفسهم إلى مجلسه محاولين ستر موقفهم . . وإذا ما كان الأمر متعلقًا بالرسالة ومكانة الرسول فى الاستغفار لوَّوْا رؤوسهم وصدوا مستكبرين . .

والرسول رحمة من الله مهداة ، وصفه الله بقوله : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » رسول جاء للهداية ، حريص عليها . من أجل ذلك يعز عليه ما فيه المنافقون من فساد وإفساد . ولكن الله يخفف عنه ما فيه فيقول :

« سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ » . فهم لا يكتفون بمجرد الصد ، ولكن يضيفون إليه الاستكبار . . وهذا صميم الفسق والخروج عن دائرة الإيمان .

الحرب الاقتصادية وتمزيق الجبهة الداخلية

وينتقل النفاق بعد هذا خطوة عملية بعد محاولة التستر خلف الأيمان الكاذبة والمظهر المعجب والقول المنمق :

« هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ

حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ، يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ . وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

وهو نفس الأسلوب الذى اتبعته قريش مع الرسول فى مكة ، حينما ألجأته وأصحابه إلى شعب بنى هاشم فى حصار استمر ثلاث سنوات . ولقد مرت هذه السنوات على النبى والذين معه قاسية عنيفة ، لا يكادون يجدون القوت حتى رقت بعض القلوب فأخرجت العهد الظالم ، الذى وضعته قريش بالمقاطعة فى جوف الكعبة ، فوجدت دواب الأرض قد سبقتهم إلى محو كلمته . .

أسلوب التجويع إذن أسلوب قديم حاول عبدالله بن أبىّ ابن سلول رأس المنافقين أن يلجأ إليه ، حتى ينفض المؤمنون من حول الرسول عليه الصلاة والسلام . .

وهو أسلوب تحاوله أية قوة باغية ضد الشعوب المجاهدة أو المستضعفة . ويأخذ شكل الحصار الاقتصادى أو الحرب الاقتصادية الشاملة . ولقد جربته بلادنا العربية والإسلامية كما جربته شعوب العالم الثالث وأشهرته فى وجوهنا قوى الاستعمار العالمى .

ونسى هؤلاء جميعاً حقيقة ضخمة من حقائق إيماننا « ولله خزائن السموات والأرض — ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وخزائن الله هنا معنوية ومادية .

ويربط المنافقون بين الضغط الاقتصادى ومحاولة ضرب الجبهة سياسيا بالإيقاع بين المهاجرين والأنصار : أيهم صاحب الكلمة العليا فى المدينة ؟
« لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجن الأعزُّ منها الأذلَّ » .

وكريم هنا موقف عبدالله الشاب المؤمن التقى ابن رأس المنافقين عبدالله بن أبىّ ابن سلول عندما وصلته هذه المقالة عن أبيه ، فقد انتظر حتى اقترب الجيش من المدينة بعد عودته من بنى المصطلق ، ثم منع أباه من دخولها حتى يشهد أن رسول الله هو الأعز .

نداء الإيمان :

ويختتم ربنا السورة بنداء يوجهه إلى المؤمنين :

« يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ . وأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلا أَخرتَنِى إلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فأَصَّدَّقَ وأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أَجَلُهَا واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

فالسورة بهذا تنتهى بالتوجيه العملى دون الاكتفاء بالعرض . . والتوجيه هنا إلى المؤمنين باعتبارهم حفظة القرآن والقاعدة التى يقوم عليها المجتمع . . فليكن الإيمان وما يرتبط به من دفاع عن قاعدة الإسلام قضيتهم الأولى ، صعوداً فوق مؤامرات المنافقين وكيد الكافرين . .

(٥)

وترجعون برسول الله إلى رحالكم *

هذان خصمان :

مالك بن عوف شاب في الثلاثين من عمره . حمل مسئولية قيادة هوازن وثقيف في يوم عصيب . لقد كان عليه أن يقابل الجيش الإسلامي بعد أن فتح مكة وزحف منها بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد ارتفع عدده إلى اثني عشر ألفاً . . حتى نظر بعض المسلمين إلى بعض في اعتزاز قائلين : « لا يغلبنا أحد اليوم من قلة !! » .

وماذا يصنع مالك بن عوف ؟ حداثة في السن وضخامة في المسئولية ودوي النصر الإسلامي يطن في آذانه . . جيش يقوده الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وعليه يتنزل الوحي ومن حوله كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين خاضوا معه المعارك في بطولة وفدائية ، وقد استقطب نجاحهم طلقاء مكة ومسلمة الفتح ، ونفوساً يحركها الإيمان وفيهم من تحركه المطامع والغنائم . .

لقد استمع مالك إلى نصح الملأ من قومه ، واختار في هدوء وموضوعية ميدان المعركة وتوقيتها . . وتحكم بهذا في عاملين خطيرين . . الزمان والمكان . وبعث عيونه ترصد حركات المسلمين ، وتأتيه بكل ما يحتاج

---

* الأهرام في ٢٦ رمضان ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩/١٢/٦) .

إليه من معلومات. واعتمدت خطته أساسًا على استغلال نقاط الضعف في الجيش الإسلامى : وأولها هذا الغرور الذى ملأ بعض النفوس ، فحال بينها وبين وضوح الرؤية والدقة فى جمع المعلومات ، وهذه النفوس الضعيفة التى ما خرجت إلا طمعًا فى الغنيمة . .

المكان الذى اختاره مالك كان منحدراً فى وادى حنين . . إذا سار فيه الجيش تدافع مع الانحدار محصوراً بين ضفتى الوادى . وعلى رؤوس الأودية الجانبية باتت عيون أرسلها ترقب حركة الجيش . قوة مالك العسكرية تسد الوادى وتسيطر على ضفافه المرتفعة . الوقت الذى تقدم فيه المسلمون كان غبش الصبح ، حين تختلط الظلمة بالبياض فى بقية الليل . . وتبدو العيون والأرصاد أشباحًا . .

وفى لحظة واحدة يحدث الهجوم العنيف الضارى من مالك على الجيش الإسلامى ويضغط ضغطًا عنيفًا مركزاً من عرض الوادى والنقط الحاكمة فى جوانبه .

ومع الضربة القوية المفاجئة تنهزم مقدمة الجيش الإسلامى مولية الأدبار ، ومن ورائها أهل مكة . . ويتحول التقدم المعتز بعدده الكبير ، ودروعه السابغات إلى اضطراب باحث عن النجاة من ورائه لا عن النصر أمامه . . ويسجل القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

«لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ

الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ » (التوبة : ٢٥)

*** ثبات الرسول والمؤمنين :**

ولم يثبت مع الرسول يوم حنين إلا نحو مائة . .

مائة من اثنى عشر ألفـًا . . بنسبة ١ : ١٢٠

ويرى الرسول جيشه ينفلت من بين أصابعه موليـًا وهو صامد فى موقفه يدعو ربه قائلا :

- اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان . .

حمداً على هذه القلة الصابرة التى تحمل أمانة الإسلام ,

وشكوى من الذين تركوه والمعركة دائرة .

واستعانة بالله على النصر . إياك نعبد وإياك نستعين .

من المائة الصابرة : صحابيات جليلات وقفن يدافعن عن الرسول بأنفسهن : أم عمارة بسيفها . أم سليم بخنجرها وهى حامل . أم سليط . أم الحارث . ورسول الله يدعو أصحابه بما يحفظون من قرآن . . واستطاعت المائة الصابرة أن تستقطب جانبـًا من الجيش الإسلامى مرة أخرى والحرب تشتد بين إيمان المؤمنين ، وحقد الكافرين ، وشماتة المنافقين حتّى كتب الله النصر لرسوله وللمؤمنين . وفرت هوازن وثقيف ومن تبعهما . . بعد أن تركوا فى الميدان أعظم غنيمة غنمها المسلمون فى حياة الرسول القائد .

الغنائم والحرب النفسية :

وبعث الرسول بهذه الغنائم إلى موقع يسمى الجِعْرانة . ونظر الناس ما يفعل رسول الله بها . .

وكان الأسرى ستة آلاف .

والإبل أربعة وعشرين ألفاً .

والغنم أربعين ألفاً .

فإذا بالنبي يبدأ بالمؤلفة قلوبهم . . مسلمة الفتح الذين لم يبذلوا فى الإسلام ، وإنما كانوا عليه حرباً . . حتى الأمس القريب .

أبوسفيان بين حرب ينظر إلى المغنم فيقول للرسول : « أعطنى من هذا يا رسول الله » ، فيعطيه أربعين أوقية من الفضة ومائة من الإبل ، فلا يكتفى وإنما يسأل لابنه يزيد فيعطيه الرسول مثل ذلك . .

فى موقف واحد يغنم أبوسفيان وولده هذا كله ؟ وماذا بذلوا من من أجل الإسلام ؟

وتتكرر القصة أمام أعين الذين خاضوا المعارك مع رسول الله . . ويسأل حكيم بن حزام الرسول مائة من الإبل فيعطيه . . فيسأل مائة ثانية فيعطيه . . فيسأل مائة ثالثة فيعطيه ثم يقول له :

— ياحكيم بن حزام إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه . وكان

كالذى يأكل ولا يشبع . واليد العليا خير من اليد السفلى . وابدأ بمن تعول .

فيأخذ حكيم المائة الأولى ويترك ما عداها . وتتكرر القصة مرات .. ومئات من الإبل وراء مئات تذهب إلى أيدى مسلمة الفتح . وينتهزها رجل من المنافقين فيقول : « إنها لعطايا ما يراد بها وجه الله » . ويصل الخبر إلى الرسول فيتغير لونه ثم يقول :

« رحم الله أخى موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

موقف الأنصار :

وتنتشر قالة السوء . . وتجد لها مكانًا عند الأنصار : ما الأساس الذى يوزع به الرسول الغنائم ؟ ويقول بعضهم لبعض :

– لقى رسول الله قومه ! ! أما حين القتال فنحن أصحابه . وأما حين القسمة (قسمة الغنائم) فقومه وعشيرته . .

ويصطرع فى نفوسهم حبهم للرسول ، وعدم اقتناعهم بهذا الذى يرون فيقول بعضهم لبعض :

– وددنا أنا نعلم ممن كان هذا ؟ إن كان هذا من عند الله صبرنا . وإن كان من رأى الرسول استعتبناه .

حوار مفتوح :

ويصل الأمر إلى الرسول فيغضب غضبًا شديداً . . ولكنه يبدأ

أولا بدراسة الموقف مع كبار الأنصار . . ويدخل عليه سعد بن عبادة ، ويدور بينهما حوار :

الرسول : ما يقول قومك ؟

سعد : وما يقولون يا رسول الله ؟ ويذكر له الرسول ما دار ثم يتابع حواره :

الرسول : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

سعد : يا رسول الله . . ما أنا إلا كأحدهم . وإنا لنحب أن نعلم من أين هذا ؟

الرسول : فاجمع لى من كان هاهنا من الأنصار . .

وتبدأ مرحلة ثانية من اللقاء مع القاعدة كلها بعد تدارس الأمر مع سعد بن عبادة ويستفتح الرسول بحمد الله والثناء عليه ثم يقول :

ـ يا معشر الأنصار . . ما مقالة بلغتنى عنكم ؟ وجدة (غضب) وجدتموها فى أنفسكم ألم آتكم ضُلّالا (وأنتم على ضلال) فهداكم الله ، وعالة فأغناكم ؟ الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم .

قالوا : بلى . الله ورسوله أمَنّ وأفضل .

قال : ألا تجيبونى ؟

قالوا : وماذا نجيبك يا رسول الله ؟

قال : أما والله لو شئتم قلتم فصدقتم : أتيتنا مكذَّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك وخائفًا فآمنّاك . .

ثم تابع الرسول حديثه إليهم بعد أن ذكرهم بفضائلهم على الإسلام

وفضائل الإسلام عليهم مؤكداً ثقته فى إيمانهم وعميق ارتباطه بهم :

ــ وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى شيء من الدنيا تألفت به قومـًا أسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟

والذى نفسى بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . . ولو سلك الناس شعبـًا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكوا حتى أخضلوا لحاهم وقالوا :

ــ رضينا برسول الله حظـًّا وقسمـًا . . وانصرفوا . .

تحليل :

والذى نخرج به من هذا :

١ ــ كيف حاول المنافقون استغلال فرصة توزيع الغنائم ليثيروا فتنة وسط الأنصار ، وكيف أن هذه الفتنة ، كان لها أساسها الموضوعى الذى تستطيع أن تستند إليه .

ــ أن الرسول قابل الموقف بمقابلة واضحة محددة على مستويين : مستوى مسئولية من الأنصار ، ثم مستوى القاعدة كلها .

٣ ــ أنه وهو القائد المنتصر كان أشد حرصًا على قلوب أصحابه وسلامة الجبهة الداخلية من حرصه على أى مغنم آخر جاءت به غزوة حنين .

٤ ــ أنه استخدم هذا المدخل العقلى والقلبي مع الأنصار : تحديداً لأبعاد المشكلة، وتوضيحـًا لفضل الإسلام عليهم ، وما أدوه هم إلى الرسول نصراً وجهاداً ، ثم قدم تفسيراً لما قام به اعتماداً على إيمانهم ، تأكيداً عميقـًا للرابطة التى بينه وبين الأنصار والدعاء لهم ولذرياتهم ..

وبهذا استطاع الرسول القائد أن يقضى على هذه الفتنة فى مهدها .. واتجه بعد هذا إلى عمل ضخم فى الجبهة الشمالية ضد تجمعات الروم . . عمل كان للمنافقين فيه تآمر جديد وأساليب من الحرب الساخنة والنفسية . .

المولد النبوى والبناء والتحرير*

يأتى احتفالنا بالمولد النبوى الشريف هذا العام ، ونحن فى أيام شهداء ودماء وبطولة ، وصراع يتصاعد بيننا وبين العدو الإسرائيلى ومن ورائه الاستعمار الأمريكى بأجهزته الظاهرة وعصاباته السرية .

والمفهوم الأصيل للاحتفال بالمولد هو الوجود الجديد . . والمولد النبوى كان إيذاناً بعهد جديد للإنسانية .

وواقعنا العربى أحوج ما يكون الآن إلى وجود جديد :

كلماتنا تحتاج إلى أن يولد منها عمل .

امتدادنا من المحيط إلى الخليج يحتاج إلى أن يولد منه تعاون وتماسك لا مجرد تجاور وتشابه . طاقاتنا البشرية والمادية تحتاج إلى مولد وفطام من الترف والدعة واللامبالاة ، وتوجيه إلى استخلاص الحق السليب .

الخطط الجزئية عليها أن تخلى مكانها لمولد التخطيط الشامل . .

الممارسة :

وليست هناك عصًا سحرية تستطيع أن تحول واقعنا العربى بين عشية

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١١ من ربيع الأول ١٣٩٣ هـ الموافق ١٤ أبريل ١٩٧٣ م .

وضحاها إلى هذا النمط المأمول ، وإنما لا بد من ممارسة التجربة وخوضها بكل مسئولياتها : تجربة المعركة والبناء الذى يمدها بطاقاتها الدينية والاقتصادية والسياسية ، وميزة الإسلام الكبرى أنه ربط بين القول والفعل :

المجتمع الإسلامى تكون والوحى ينزل .

المعارك دارت وحركة البناء مستمرة . الأيدى التى ترتفع بالتكبير وتصافح الأرض ساجدة منيبة ، هى الأيدى القوية التى تقبض على السيوف وأعنة الخيل فى المعارك .

الرجال الذين شيدوا مسجد المدينة ، هم الذين حفروا الخندق حولها وأقاموا الحصون .

العيون التى بكت من خشية الله ، هى التى أمضت ليلها تحرس ثغور المدينة .

الحناجر التى رددت آيات القرآن داعية ربها خوفاً وطمعاً ، هى التى كانت تهتف فى معارك الحرية والدفاع عن قاعدة الإسلام فى المدينة .

الممارسة فى الحياة اليومية :

وممارسة هذا كله تكوين ونمو مستمران للفرد والمجتمع ، وواجباتنا فى التكوين أن نترجم الدين إلى ممارسات متكاملة فى الحياة اليومية لأفراد المجتمع صغاراً وكباراً . .

هكذا علّم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أصحابه : علمهم أدب الطعام ، والاستئذان عند دخول المنزل ، وطريقة دخول المسجد . . كما علمهم أخلاقيات الحرب ، ودعاهم إلى بناء المجتمع والدفاع عنه ، كما حبب إليهم جنة عرضها السموات والأرض . . علمهم حب الأبناء ، ثم دعاهم والأبناء إلى ساحات الاستشهاد « وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » (البقرة : ١٦٥) . وتأسيسًا على ذلك علينا أن نجعل من الاحتفال بالمولد النبوى الشريف انطلاقًا متجدداً ، وميلاد مرحلة جديدة على طريق البناء والمعركة . . بدءاً بالطفل الصغير ، ومسيرة إلى الشباب والرجال . .

فالطفل الصغير الذى يتعود النظام والدقة فى أداء الواجب ، هو الذى تراه منظمًا عندما يحمل مسئوليته كبيراً فى المكتب والمصنع وجبهة القتال .

الطفل الذى يتعود الاقتصاد فى الماء والنور والثياب ، هو الذى تراه دقيقًا فى احترام الملكية العامة ورعايتها .

الطفل الذى يمارس الرياضة والعبادة والتدريب العسكرى ، هو الشاب المؤمن المتكامل المتوازن .

هذه الواجبات السلوكية هى المعبر بين الدين والحياة .

روح الإسلام :

ولننظر إلى قواعد الإسلام التى تعلمناها من رسولنا ، عليه الصلاة

والسلام ، وجانب من آثارها فى تكوين الفرد والمجتمع :

السلوك المنضبط هو روح الصلاة حين نقف فيها صفوفاً نتحرك بأمر الإمام ونفتح عليه بالصواب إذا أخطأ .

والإقلاع عن التسيّب فى القول والفعل هو روح الصوم .

والتعود على الإيثار هو روح الزكاة .

والتوجه الدائم إلى الهدف هو روح الحج .

واجتماع هذا كله فى عقيدة قوية وفرد متكامل ومجتمع متماسك ، هو روح التوحيد .

البناء وتحرير الأرض :

والبناء تحرير ، وتحرير الأرض بناء .. ولا يتحققان إلا من خلال بناء شباب مؤمن متحرر من حب الدنيا وكراهية الموت ، على استعداد ليقدم كل ما يملك من أجل استعادة أرضه وبناء مجتمعه . ولا يتم تكوين هذا الجيل وبناء المجتمع وتحرير الأرض إلا من خلال الممارسة وخوض تجربة متكاملة يتحرك فيها المجتمع بكل طاقاته مجدّداً ذاته ، مدافعاً عن أرضه ، متطهّراً من هزيمة الخامس من يونيو بمياه قناة السويس ، مصلّياً على أرض سيناء الحبيبة ، مكبّراً فى القدس الشريف ، مستعيداً أرض السلام لشعب فلسطين .

وأعود فأقول : علينا أن نحول الاحتفال بالمولد إلى واجبات يومية من الإنجازات فى مجالات الخدمات والإنتاج . . من العمل فى القاعدة والجبهة . . وفى هذا تلتقى جميع أجهزة المجتمع على الصعيد المحلى ، متعاونة على الصعيد العربى والإسلامى ، مع كل محبّ للسلام عامل له .

فى ذكرى الإسراء والمعراج

وثيقة . . ومفتاح . . ومنبر*

ونحن مقبلون على المواجهة الشاملة من أجل تحرير الأرض ، وفى ذكريات الإسراء والمعراج ، أذكر ثلاثة من أهم معالم إخائنا وتسامحنا وإصرارنا .

١ — وثيقة :

فعندما أحرقت إسرائيل دير القديسة كاترين فى سيناء ، كان فيه رسالة من الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، إلى المقوقس كبير أقباط مصر .

كان من الممكن للمسلمين ، طيلة هذه القرون ، أن يطالبوا بالوثيقة ، وأن يطالبوا بضمها إلى أى متحف إسلامى باعتبارها من التراث النبوى ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وإنما احترم المسلمون ، عبر القرون ، حق القبط فى الاحتفاظ برسالة وجهها الرسول إلى رئيسهم .

وعاشت الوثيقة فى سلام ، وسط أدعية السلام ، حتى روعها العدوان الإسرائيلى الغادر بحريق الدير .

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٢٩ من رجب ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٨ أغسطس ١٩٧٣ م .

٢ ــ مفتاح :

أما مفتاح كنيسة القيامة ، فله قصة أخرى .

كانت تتوارثه أسرة مسلمة هى أسرة « نسيبة » فى فلسطين العربية المؤمنة .

فبعد الحروب الصليبية حدث خلاف بين الطوائف المسيحية :

من الذى يحفظ عنده مفتاح كنيسة القيامة ؟

وتنافست الطوائف فى هذا تنافسًا يذكرنا بخلاف بطون قريش على وضع الحجر الأسود .

وانتهى الأمر إلى أن يجعلوا ــ باتفاقهم ــ مفتاح كنيسة القيامة عند المسلمين ، يفتحون الكنيسة فى الأعياد والمناسبات . . ويبقى المفتاح عندهم . . حتى موعد الفتح المقبل .

وتعاقب الحكام المسلمون فى القدس الشريف ، ويبقى مفتاح كنيسة القيامة عند المسلمين ، برضا المسيحيين ، حتى العدوان الإسرائيلى .

صورة أخرى من صور الإخاء الذى عاشت فى ظلاله أرضنا .

والذى يستوقف النظر فى الحروب الصليبية موقف المسيحيين أبناء الأرض العربية والخلاف الجذرى بينهم وبين الذين شنوا الحروب الصليبية المتسترة وراء صليب المسيح . ولقد بين مؤرخو أوربا أنفسهم مواقف مسيحيي الشرق إلى جوار إخوانهم المسلمين ، وما لقيه أقباط مصر من عنت الصليبيين الذى وصل إلى منعهم من زيارة الأماكن

المقدسة ، وكان تحرير القدس تحريراً لها من سيطرة أجنبية ، لتعود إلى أبنائها من مسلمين ومسيحيين .

٣ - منبر :

أما منبر صلاح الدين فله قصة ثالثة .

ذلك أن نور الدين محموداً نذر أن يقيم منبراً فى القدس الشريف بعد النصر على الصليبيين . . وبقى المنبر عشرين عاماً فى مدينة حلب ينتظر يوم عيده ، حتى جاء عيد الفتح ، وكان هذا فى ذكرى الإسراء والمعراج ، وفى عهد صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٣ هجرية - ١١٨٧ م . . هذا المنبر هو الذى أحرقته إسرائيل فى عدوانها الغاشم فى أغسطس ١٩٦٩ .

- وثيقة نبينا فى دير بسيناء ، وبزيتها ضرب الله مثلا لنوره .
- مفاتيح كنيسة القيامة فى يد المسلمين برضا المسيحيين .
- منبر أقامه صلاح الدين بعد تحرير القدس من الغاصبين .

أمام الرأى العام العالمى نعرض هذه القيم التى عاشت بها أرضنا . وإن دفاعنا عن أرضنا ومقدساتنا إنما هو دفاع فى الوقت نفسه عن أشرف القيم التى عاشت بها الإنسانية عبر القرون .

حوار بين رمضانين*

الأول :

وكان جالساً وفى يده بيان بمطلوبات ، وعلى وجهه آثار التفكير والمعاناة . الموارد المالية محدودة ، والمطالب كثيرة . والذين حوله يلحون فى الرجاء . وأعاد قراءة البيان . كل محتوياته تدخل تحت بند رئيسى « الطريق إلى المعدة » : سلع محلية ومستوردة ، مقادير من المكسرات وقمر الدين – وهل للدين قمر فيؤكل ؟ – وكميات إضافية من المسلى والزيت واللحم . لماذا نسى أهله أدوية الهضم ؟ هل هو نسيان مقصود ؟ لا يدرى .

وأخذ يترجم المقادير إلى نقود . نعم نقود . ومع دخول المدارس أعباء لا يمكن تأجيلها : كتب ، ملابس ، حقائب ، ورق تجليد . ما النتيجة ؟ صراع بين العلم والطعام . بين العقل والمعدة . بين المنطق والتقاليد . ومن الذى وضع هذه التقاليد ؟ هذا المجهول أو هؤلاء المجهولون الذين يحكموننا ويسيطرون على عقولنا ؟ ولو أحضر كل هذا الطعام ، وقد تقدمت السن وزادت الأعباء ، لكان طعام الإفطار أقرب

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٢ من رمضان ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ م .

ما يكون إلى الانتقام من الصيام . وما قيمة التدريب على الحرمان إذا كانت ثمرته الإسراف ؟ رمضان كريم . نعم كريم ، ولكنه غير مسرف .

الثانى :

كانت الأوراق بين يديه وهمومه فى نفسه عندما دخل الثانى . إنه أخوه ، وبينهما فارق السن والاتجاه . وقدم الأول البيان إلى أخيه . والبيان مال مطلوب ، وعناء مرسوم ، وعلامة استفهام حائرة بين العقل وسطوة التقاليد . وقال أخوه : تستطيع أن تخفف من بعض هذه الأعباء لميزانيتك وصحتك . لا أقول امتنع ، ولكن بعضها يكفى . كل ما توفره سيعود إليك هدية من وطنك : مدرسة . مستشفى . جهازاً طبيًّا حديثًا . سلاحًا فى معركة . .

معركتك مع العدو ليست بالأسنان وليس ميدانها البطن .

عليك أن ترتفع بذاتك . ترتفع بالمعدة فوق النهم ، وبالإرادة الواعية الراشدة فوق التقاليد المجهولة الأصل ، وبكلمة الله فوق نداء الجسد .

فى ليلك ونهارك يا أخى أمور متصلة لا يقطعها الصوم : الكلمة الطيبة . العبادة . الجهاد . العلم . العطاء . وهناك أمور يقطعها الصوم : الطعام والشراب . . فعوّد نفسك الارتفاع فوق ما يقطعه الصوم إلى ما لا يقطعه الصوم .. قف طويلا عند هذه الحكمة العميقة للصيام .

من هنا :

تصورت هذا الحوار بين رمضانين ، أو أهل رمضانين . رمضان نعيش فيه ، ورمضان عاشه آباؤنا وبعض أهلنا ونريد أن نعيشه .

حوار بين رمضان لو تجسد بمفهومنا لكان مترهل الجسم ، واسع البطن ثقيل الحركة ، يأكل مع الصيام أكثر مما يأكل مع الإفطار . . وبين رمضان ضامر الجسم ، متناسب التركيب ، متخفف من الطعام ، بعيد النظر ، محب للعلم والعبادة والجهاد والكرم والعطف على المحتاج .

رمضان الأول متجه إلى الداخل ، نشيط الفم . ورمضان الثانى متجه إلى الخارج ، مبسوط اليد بالعطاء . وما أريد أن أقف فى هذا المقال عند حدود النقد السلبى ، فما أهونه ! وأرجو أن يكون إيماننا وديننا على المستوى الذى حدده أفضل الخلق ، صلى الله عليه وسلم ، فى حديثه الشريف : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . . »

إن أكبر ما يقابلنا فى العمل الدينى بعامة هو تحويل الكلمة إلى عمل . الخروج من دائرة الكلمات العقيم إلى الكلمات الولود . من النقد إلى البناء . ونستطيع أن نبدأ بجلساتنا فى رمضان . .

فنحن نمر الآن بتجربة حوار عريض نراجع فيه موقعنا بين المتغيرات العالمية ، وعلى مؤسساتنا أن تجدد ذواتها فى ضوء هذه المتغيرات . .

تجديداً يجمع بين الأصالة والانفتاح ، فى توازن صاعد إلى آفاق آمالنا .

والمسجد من أهم وأكثر المؤسسات عراقة فى حياتنا . كيف نزيد فاعليته وكفاءته ؟ كيف يكون أكثر إشعاعاً فى الحى و إفادة لأهله ؟

فى بعض المساجد أقمنا حلقات حفظ القرآن وفهمه ، وحلقات لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى بعضها أدخلنا دروساً فى تقوية طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية ، وفى بعضها مسابقات فى القراءة الدينية ، ومكتبات مفتوحة ، وفى بعضها نشاط للأطفال يجمع بين العلم والرياضة .

هذه مجرد نماذج عن ناحية من نواحى الحياة فى المسجد . وثمة نواح أخرى تتعلق بعقد ندوات لأئمة المساجد الأهلية ، أو قيام المشرفين على مسجد كبير برعاية مجموعة من المساجد الصغيرة المحيطة والإشراف على هذه التجارب فيها .

ويمكن التفكير فى الربط بين الرعاية الاجتماعية والعلمية لأبناء المسجد . ثم موضوع تطوير خطبة الجمعة بحيث تكون أكبر فاعلية وتكون — بحق — واحة الإيمان التى يأوى إليها المصلى بعد رحلة الأسبوع بكل ما فيها من معاناة ومسئولية . . والمدد الذى يدعوه إلى المزيد من العمل والإخلاص والحب الإيجابى لوطنه وقضاياه ، دون أن ترتكز الخطبة على عناصر من النقد المر ، والهجوم الانفعالى ، والمعارك اللفظية ، التى تضيع كالبخار دون أن تمر فى أنابيب تحولها إلى طاقة وعمل . .

ولو خرجنا من دائرة المسجد ، إلى مجالات تنسيق العمل الإسلامى والدينى بعامة ، على الصعيد المحلى والعربى والعالمى ، وما زال — إلى حد بعيد — كثير القول قليل العطاء . .

فهل نستطيع فى رمضان أن ندير حوارنا — أو بعض حوارنا — فى مجالسنا حول النظائر من هذه الاقتراحات العملية البناءة ؟

لقد أثير الموضوع فى حوار عريض فى جلسة مجلس الوزراء بتاريخ ١٩٧٣/٩/١٩ ووجد من السادة الزملاء عناية كبيرة تدعو إلى إثرائه بحوار أوسع .

بنك أفكار إسلامية :

وانتقل إلى اقتراح أسلوب العمل : عند كثير منا فكرة أو أفكار تستطيع أن تجدد شباب العمل الإسلامى . ويستطيع كل منا أن يكتب هذه الفكرة فى سطور . وأن نجعل من هذا الموضوع حواراً مفتوحًا لترشيد العمل الدينى أو الوحدة الوطنية . فقط علينا أن نبدأ . ولا تقل لنفسك ما قيمة فكرتى ؟ فما النهر ؟ إنه قطرة ماء تكررت وتواصلت . وما الغابة ؟ إنها شجرة متكررة متجاورة . فلا تحقر منها فكرة ، اكتبها وارسلها إلى إحدى الصحف . فمن هذه الأفكار يمكن أن يتكون « بنك أفكار إسلامية » ؛ رصيد ضخم يمكن أن يأخذ فى النماء ، ونستطيع أن ندير معًا حواراً فى رمضان ، ونحن فى موسم أعياد إسلامية متتابعة حتى عيد الهجرة .

هذا الأسلوب قد يكون تجديداً لما درجنا على كتابته فى رمضان . . وإضافة بناءة تسهم فيها صحافتنا وكتابنا . .

فاجعلوا صدقاتكم فى رمضان مالاً وفكراً . . والحديث الشريف يقول : « الكلمة الطيبة صدقة » ؛ والصدقة من الصدق فى الإيمان والقول والعمل .

والاقتراح معروض ، أرجو أن يتسع له صدر هذه الصحيفة وصدوركم . . والكلمة لها ولكم . وكل عام وأنتم جميعاً بخير .

إيجابية الصوم*

من طبيعة رمضان أن تتجمع فيه ذكريات الماضى وأحداث الحاضر وآمال المستقبل بحلوها ومرها ، وبسماتها ودموعها ، ويبدو هذا فى أكثر من صورة فى حياتنا اليومية .

فى رمضان يزداد الودّ والتزاور بين الناس ، وتزداد العبادة والتوجه إلى الله ، ويزداد عمار دور العبادة والاقتراب من القرآن الكريم والسيرة النبوية المطهرة وتاريخنا الحافل بالأمجاد والدروس .

وفى رمضان يجد الألم عزاء فى آية من قرآن ، أو عبرة من تاريخ ، وتجد الدمعة الحزينة سكينة يشيعها الشهر الكريم فى حياتنا ، ويجد القلب المكدود روحـًا وريحانـًا فى روضة الدين ، يستعين بها على أن يتابع المسيرة فى قوة وفاعلية .

ولكن . . مهما تكن الصورة التى يتحول إليها الحزن أو تصاغ فيها التجربة ، فينبغى ألا تنقطع عن المصدر الأول ، ولا أن تصبح بتراء عقيمـًا ، وعلينا أن يظل احتفالنا بأبطالنا دافعـًا إلى البطولة ، وأن يظل احتفالنا بعبادتنا دافعـًا إلى التقوى والعمل الصالح .

---

* نشر بجريدة الجمهورية فى عددها الصادر بتاريخ الجمعة ٢ من رمضان ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ م .

عمارة مسجد . الاحتفال بشهيد . تمجيد قائد . استقبال شهر رمضان . إحياء لذكرى . كل أولئك ينبغى أن يكون مرتبطـًا بجذوره متوجهـًا إلى أهدافه على هدى من الكتاب المبين والسنة المطهرة .

ومن هذا المدخل نستطيع أن نرى أسلوب استقبالنا لرمضان شهر الصوم الذى وصفه الله تبارك وتعالى بقوله : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (البقرة : ١٨٣) .

والتقوى مستوى سلوكى من خشية الله يشيع فى العمل ويحفظ له نقاءه . والتقوى ليست أمراً مقتصراً على الحياة الدينية بمفهومها الشامل ، لا يمكن أن ينحصر بين جدران المسجد وتتردد بين أعمدته فى دعوات وصلوات ، وفوق منبره مواعظ

والعبادات — ومن بينها الصوم — تنهى عن السوء وتدعو إلى الخير وتترجمها الحياة اليومية إلى إنجازات فى كافة المناشط .

وفى هذا الضوء نستطيع أن نرى فى الصوم إرادة الحياة . إنه كف عن الطعام والشراب والشهوة ، وهو بهذا تربية بالحرمان ، والتربية إرادة ، والإرادة إيجابية ، والإيجابية إنتاج .

وعميق قول الإمام علىّ بن أبى طالب فى وصف الإسلام : « الإسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل » .

وفى شهر رمضان كانت غزوة بدر ، وفتح مكة، ومعركة عين جالوت بيننا وبين التتار، وانتصارنا بعد هزائم متوالية لحقت بالعالم الإسلامى والعربى عشرين عامًا .

وفى رمضان – قبل هذا كله – نزل القرآن الكريم ، الكتاب الذى دفع الدنيا من الظلمات إلى النور . فكل ارتباطات رمضان فى ديننا تدعو إلى العمل والتفتح على الحياة والآخرة معًا .

تدعو إلى البر بالناس والإقبال على الله . وأكبر البر إخلاص كل فرد فى عمله واستجابته لمطالب الناس عنده .

وما أجمل أن ينتصر الإنسان على نفسه فى رمضان ، فلا يصخب ولا يضيق بالناس ولا بالعمل ، ولا يكون إفطاره فى الكم والنوع صورة من الاحتجاج على الصوم برغم ما يعلم من أثر ذلك على صحته وعلى نشاطه فى العبادة .

إن هذه الإرادة التى يربيها الصوم نحتاج إليها فى استعدادنا لعدونا وفى معركتنا المصيرية وهذه المعركة مستمرة فى الحقل والمصنع وقاعة الدرس ومعمل الأبحاث وأقسام التجارب . فهذه جميعًا روافد المعركة . وعكوفنا على هذا العمل كله نوع من « الصيام » عن الراحة حتى « نفطر » على النصر إن شاء الله .

المعركة والبناء فى المنظور التاريخى *

فى عالم الوحدات الكبيرة والتجمع والتقارب ، يحسن بنا الرجوع إلى تجارب تاريخنا فى مقابل قضايانا الرئيسية . لنأخذ منها ما يعين على السير ، دون أن يكون الماضى والحديث عنه هروباً من الواقع أو تخديراً للحواس .

قضية مجتمعنا الكبرى هى المعركة والبناء . الجيش والجبهة الداخلية . المحارب والمنتج . . جيل يتقدم إلى مواقع الفداء ومعاهد العلم ومجالات الإنتاج فى الوقت نفسه . .

وهذه الغزوة الصهيونية تذكرنا بالغزوة الصليبية ، وما سبقها من حروب مع الروم . فلننظر إلى نماذج من جهودنا فى مقابلة هذا العدوان على أرضنا . ولتكن نظرتنا على مستويات : المستوى العربى والإسلامى الشامل . المستوى المحلى . ولنبدأ بالأول :

١ ــ نيران المنائر :

كانت خطوط المقاومة الرئيسية التى يلقاها المدّ الإسلامى واقعة فى الشمال : فى أرض فارس والروم . ولم تتوقف الحروب مع الروم

---

* نشر بجريدة االأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٩ من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ٥ أكتوبر ١٩٧٣ م .

إلاّ فترات كانت فى الأغلب استعداداً لهجوم جديد على أرض الإسلام ؛ الإسلام الذى استطاع السيطرة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، واتخذ منه نقطـًا للتقدم إلى الأجزاء الوسطى من أوربا .

وكان على المسلمين أن يتعاونوا فى حماية الساحل الأفريقى . . فماذا فعلوا ؟ لقد أقاموا نظامـًا دقيقـًا من أبراج المراقبة على طول الساحل يستطيع أن ينقل التحذيرات عن طريق إشعال نيران المنائر خلال يوم واحد من الإسكندرية إلى جبل طارق .

٢ ــ العمران :

وفى تلك القرون اتجهت عنايتهم إلى العمران والبناء الداخلى ، رفعـًا لمستوى الحياة وكفالة لمدد المعركة ، واتجه العمران إلى دعم التجارة الخارجية مع الشرق الأقصى عن طريق البحر ، وقلب إفريقية عن طريق القوافل ، والقيام بمشروعات تخزين المياه فى المناطق شبه الجافة ، والتوسع الزراعى ودعم الصناعة ، وبرزت أسماء مدن النسيج فى أرض الإسلام ، مع التخصص الدقيق : فى تنيس ودمياط نسج الكتان والألبسة المطرزة بالفضة والذهب . الحرير فى باجة وقرطبة فى الأندلس، إلخ . . هذه مجرد نماذج لتنمية اقتصادية شاملة .

٣ ــ الجبهة الشرقية والشمالية :

من هذا التعميم ننتقل إلى شىء من التخصيص ، نصاحب فيه

الرحالة ابن جبير الأندلسى ، وكانت زيارته لمصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وفى ذروة من ذروات الحرب الصليبية . .

كان الخطر الصليبى يستطيع التقدم من الجبهة الشرقية . . عن طريق دمياط متوغلاً فى فرع النيل وعلى ضفته وهو غير مستبعد من فلسطين . وكان من الممكن أن يهاجم الإسكندرية .

وعلى صلاح الدين أن يحتفظ بقدرة على الحركة ومرونة تساعده على نقل قواته عبر النيل عند رأس الدلتا . وللنيل فيضان يغمر الأرض ، وانحسار يضيق فيه المجرى . . من أجل ذلك أقام طريقاً علوياً على حافة الجبل الشرقى حتى النهر على أقواس حجرية ضخمة ، ويقابله من الضفة الغربية طريق علوى مقابل ينتهى إلى الصحراء . ولندع القول لابن جبير ليشرح هدف الطريق العلوى : « ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر (يقصد القاهرة) وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء « مصر » كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسِيّ القناطر . والقنطرة متصلة بالصحراء التى يفضى منها إلى الإسكندرية . له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزَمة إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر

بسببه ، فأعد ذلك مسلكـًا فى كل وقت ، إن احتيج إليه . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بمنّه »[١] .

٤ ـ رعاية الشباب :

ومع الاستعداد العسكرى كانت هناك رعاية منتظمة وواسعة للشباب ، والشباب نصف الحاضر وكل المستقبل . ولم تقتصر الرعاية على أبناء المصريين وحدهم ، وإنما عنى ابن جبير ـ بحكم نشأته ـ بما وفره صلاح الدين من رعاية للمغاربة ، وتحدث عن الرعاية العلمية وإعداد الأساتذة المتخصصين فى جميع العلوم والفنون التى يود الطلاب التخصص فيها ، والتى تقتضيها المصلحة ، وعن توفير الطعام والمسكن لهم : وعقّب على هذا بقوله : « وأما أهل بلده (يقصد المصريين) فنى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، بل وصل الأمر إلى العناية الاجتماعية وتحديد مشرفين للعناية بشئون الطلاب وإنشاء مستشفى لهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء »[٢] .

٥ ـ تكامل فى العمل :

والذى يستوقف النظر من هذه النماذج الأربعة أنها تدعو إلى

---

(١) رحلة ابن جبير : تحقيق د. حسين نصار ـ ص ٢٢ ط. القاهرة.
(٢) رحلة ابن جبير ص ١٩ .

التكامل فى مقابلة المعركة والبناء على الصعيد العربى والإسلامى من ناحية والمحلى من ناحية أخرى . .

من أين يأتى صلاح الدين بهذه النفقات للمعركة والبناء ؟ من أين ينفق على الجيش والشباب ؟

ليس هناك من إجابة سحرية ، وإنما هو العمل ومزيد من العمل ، والإنتاج ومزيد من الإنتاج ، التعبير المؤمن والإيمان التطبيقى . أن تتحول الطاقات إلى مسالك مثمرة بدلا من ضياعها واستهلاكها فى كلام يلد كلامـًا .

٦ ـ صوت من رمضان :

ورمضان كان دائمـًا شهر تعبير عملى عن الإيمان . .

على مستوى الفرد يدعم الإرادة لتتجرد لله ، مرتفعة فوق حاجات الجسم مع أنها حلال فى غير الصوم ، مبتعدة عن الغضب والطيش والتوتر .

وعلى مستوى الأسرة تماسكـًا وتوادًّا وتعاطفـًا .

وعلى مستوى المجتمع إخاء كريمـًا نصبح به ـ ما استطعنا ـ كالجسد الواحد .

فلنحاول أن ندعم فى الشهر الكريم مسالك العمل فى حياتنا ، ولتكن أيدينا ألسنة تتحدث إلى الأرض زراعة ، وإلى المصنع صناعة . نصافح بها كتب العلم ونفتح بها أبواب المستقبل : أبوابـًا حمراء فى الجبهة ، وخضراء فى حقولنا الحبيبة ، وبيضاء فى محاريب العلم .

يوم العبور فى رمضان ومسئولياته *

شهد رمضان فى تاريخنا أكثر من انتصار على أعدائنا : شهد غزوة بدر الكبرى ، وفتح مكة ، والعودة المظفرة من غزوة تبوك بقيادة الرسول الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه . وشهد انتصارنا فى عين جالوت على التتار فوق أرض فلسطين الحبيبة . وها هو ذا يشهد يوم العبور فى العاشر من رمضان فى عامنا هذا ١٣٩٣ ه .

إنه لم يكن مجرد عبور القناة . . ولكنه عبور فوق ٥ يونيو ١٩٦٧ بكل ما أقام ذلك اليوم فى نفوسنا من سواتر ترابية وسدود وموانع . . بكل ما زرع فيها من ألغام الحرب النفسية ، ومحاولات كسر الإرادة العسكرية ، وتمزيق الوحدة الوطنية ، وصدع القاعدة الشعبية . أبناؤنا الذين عبروا القناة بالقوارب ، والذين تسلقوا السواتر بالسلالم ، والذين شقوا الطريق لمن أقاموا الجسور تحت مظلة الطيران والمدفعية ، فتدفقت عليها قواتنا ، والذين رفعوا العلم المصرى فوق سيناء الغالية ؛ كل أولئك جعلوا أنظارنا ورؤوسنا ترتفع مع أعلامنا مرة أخرى إلى السماء ، إيمانًا وشكراً وعرفان جميل ، قطرة عرق ونقطة دم وطعنة سلاح وطلقة رصاص ، وخطوة واثقة على أرض سيناء بأقدام المنتصرين . .

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٦ من رمضان ١٣٩٣ ه الموافق ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ م ، بعد العبور فى العاشر من رمضان إلى الضفة الشرقية للقناة .

أبناؤنا :

وأبناؤنا العابرون صانعو النصر : نبتوا فى الأرض الطيبة . تربوا فى رعاية آبائهم الشرفاء من العمال والفلاحين والمثقفين والتجار . . فى النجوع والقرى والمدن . . وتجمعوا قطرات مؤمنة فى نهر قوى التيار ليصب فى سيناء يحمل إليها الخصب ، ويجعل رمالها خضراء بالأمل الجديد . .

مسئولياتنا :

ولكن مع روعة العبور الكبير الذى استغرق سنوات من الإعداد ، وتخطيطًا وتدريبًا شاقًا صنعه أبناؤنا فى إيمان وفدائية ، تحت قيادة مؤمنة راشدة ، علينا أن نذكر دائمًا كيف دخل رسولنا ، صلى الله عليه وسلم ، مكة يوم الفتح فى تواضع ، ورأسه الشريف يكاد يمس ظهر ناقته . فللفتح فرحة . ولكن مسئوليته الكبرى فى حمايته والاستعداد لما بعده . وعلينا مع شكر الله والتقدير العميق لما بذلته قواتنا — وهم بعض أنفسنا وروح المستقبل فينا — علينا أن نؤكد وجودنا فى أرض المعركة : أقدامنا ثابتة فى الميدان . أيدينا على السلاح . قلوبنا مع الله . آذاننا مع القيادة . عيوننا على عدونا . خطواتنا متتابعة إلى الحدود . .

بذل النفس والمال :

والمرحلة الحالية والمقبلة تقتضينا كثيراً من السخاء بالنفس والمال ، والقرآن يجعلهما ركيزتين للنصر فى أى مجتمع . وبغيرهما لا يستطيع متابعة الاستمرار . والتعبير القرآنى : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » جاء مرتين إحداهما بعد البخل بالنفس والثانية بعد البخل بالمال ، وذلك فى قوله تعالى :

«يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا . وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » . (التوبة : ٣٨ : ٣٩) . .

وهذه عن اليخل عن النفس . . أما عن البخل بالمال . . فجاء فيه قول الله تعالى :

« هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُم مَّنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنْتُمُ

الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » (محمد : ٣٨) . .

علينا أن نؤكد عبور هذين الحاجزين . فبهما استطعنا عبور القناة ودخول سيناء . ومجال التأكيد : فى الجبهة المحاربة والجبهة الداخلية معًا .

خدمة المعركة :

وبذل النفس ليس قرين الاستشهاد . المطلوب التضحية وتأدية الواجب . وما أكثر المواقع التى خاضها خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، ثم كان موته على فراشه . .

ومجالات الخدمة كثيرة ومتنوعة ، ولنذكر منها نماذج :

١ ــ أقربها الإيثار وعدم التهافت على تخزين السلع الاستهلاكية ، ونحن فى المعركة علينا أن نعيش جو الأسرة الكبيرة الواحدة متذكرين الحديث الشريف «طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الأربعة ، وطعام الأربعة يكفى الثمانية » . .

٢ ــ وليكن من الإخوة التجار حسن المعاملة . . متذكرين الحديث الشريف : « التاجر الصدوق الأمين ، مع النبيين والصديقين والشهداء » .

٣ ــ وليتعاون شبابنا فى حراسة المنشآت . فى الدفاع المدنى . فى المقاومة الشعبية . متذكرين الحديث الشريف « عينان لا تمسهما النار يوم القيامة : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » . .

٤ – وليكن من فتياتنا التعاون فى أعباء المعركة ؛ ومجالات الخدمة فى المستشفيات تحتاج إلى أيديهن الطاهرة . وليذكرن أن الصحابية الجليلة أم عطية ، رضى الله عنها ، كانت تقوم برعاية المرضى على عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن أم عمارة نسيبة الخزرجية شاركت هى وزوجها وأولادها فى المعارك مع الرسول ، صلى الله عليه وسلم . . وأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، ساهمن فى رعاية المرضى ونقل الماء بالقرب فى ميدان المعركة . .

٥ – وليكن من صناعنا وزراعنا المزيد من الإنتاج والتقليل من الاستهلاك وإتقان العمل ، والنبي يدعونا فيقول : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

٦ – ولنوطن أنفسنا على التحمل وعلى أعباء المعركة . . فهى طويلة ومريرة . تتعاقب فيها الأفراح والآلام . . متذكرين أمر الله لنا :

« وَلاَ تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ »
(آل عمران : ١٣٩ – ١٤٠) . .

هذه سنة الله :

هذا الصراع بين حقنا وباطل عدونا هو سنة من سنن الله .

« كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ

جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ » .

(الرعد : ١٧) .

وإذا كنا قد وضعنا فى رمضان أقدامنا على أول طريق التحرير واستعادة الأرض الغالية ، فلينظر كل منا إلى قيامه بمسئوليته باعتبارها أحجار بناء المستقبل والحصن الذى نستطيع أن نصون به ما حصلنا عليه ، ونسترد ما فقدنا ، ونحول الآمال إلى حقائق ملموسة .

من أخلاقيات المعركة*

متابعة المسيرة الظافرة بعد عبور قناة السويس ، وتحطيم خط بارليف ، والتقدم على أرض سيناء ، تقتضى من الجبهة الداخلية فى كافة مجالاتها ارتفاعـًا إلى مستوى تستطيع فيه الاستجابة المستمرة لمتطلبات المعركة . . وهو واجب يختلف فى الكم والكيف عما نمارسه فى ظل ظروف عادية .

وحديثى اليوم عن خمسة نماذج من هذه المسئوليات .

١ ـ الحد من الاستهلاك :

إذا كان رمضان ـ فى جوهره ـ تربية بالحرمان ونوعـًا من الفطام عن بعض ما أحلّه الله بعض الوقت ، فعلينا ـ ومعركتنا فى رمضان ـ أن نوسع دائرة الضبط النفسى لتشمل مرافق حياتنا .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهانا عن الإسراف فى استخدام الماء ولو كنا على شاطئ نهر يجرى . لماذا ؟ حتى يكون تنفيذ الاستهلاك عادة تتأصل فينا .

وينهانا عن شهوات البطون وما تربو به الأجساد وتتراخى فيقول :

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٢٣ من رمضان ١٣٩٣ هـ الموافق ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ م .

« إن شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم » . ويجمع إلى الطعام ألوان الشراب والكساء فى قوله : « سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام ، أولئك شرار أمتى » .

وعلينا أن نروض أنفسنا وأهلنا على الحد من الاستهلاك ومراعاته فى الحياة اليومية : الماء ، الكهرباء ، البوتاجاز ، الأدوات الكتابية فى دواوين الحكومة ، البنزين . . إلخ .

٢ ــ زيادة الإنتاج :

ومع تقييد الاستهلاك علينا أن نزيد الإنتاج ، هكذا يعلمنا القرآن لنقابل أوقات العسرة والشدة . وفى قصة يوسف نقرأ قوله تعالى :

« تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ » . (يوسف : ٤٧) .

ولنتأمل قول الله تعالى : « دَأَبًا » أى عملا مستمرًّا من غير فتور . ولم تكن هناك أمام يوسف من وسيلة إلا زيادة الإنتاج مع تقييد فى الاستهلاك فى قول الله تعالى : « إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ » حتى يستطيع مقابلة السنوات العجاف والاحتفاظ مع هذا كله باحتياط هو « البذور » التى يستخدمها بعد ذلك فى زرع جديد .

تطبيق ذلك على مزارعنا ومصانعنا يقتضى نشاطاً وتعاوناً وتطوعاً فى تنقية دودة القطن . . فى جمع المحاصيل . فى حراستها . فى تقليل العوادم فى المصانع . فى حماية وصيانة الآلات . فى سرعة الإصلاح وتركيب قطع الغيار . .

٣ ــ التخفف من بعض عاداتنا :

ونحن نعلم جميعاً أن جانباً غير قليل من قمحنا نستورده من الخارج بالعملة الصعبة ، وأننا فى وقت الحرب ومسئولية التحرير ، ونحن مقبلون على العيد ، أعاده الله بالخير ومتابعة النصر .

فهل نستطيع أن نتعاون مع وزارة التموين على الإقلال من استهلاك الدقيق الفاخر والسكر والسمن ؟ هل تستطيع جمعياتنا النسائية أن تتولى الدعوة إلى ذلك ؟ لقد قدمت القوات المسلحة إلى كل مصرى «كعكة العيد» نصراً كريماً ، فهل نوفر نحن من استهلاكنا فى العيد لنخفف العبء عن مواردنا ونحسن توجيهها إلى المعركة ، لو فعلنا هذا لكان فيه الخير لصحتنا وتموينا وارتفاع إلى مستوى مسئوليتنا ولنتبع هذا فى عاداتنا الأخرى .

٤ ــ رعاية الأبناء :

وأبناؤنا الآن قد عدلوا فى ظل المعركة نمط حياتهم العلمية والعملية : شباب الجامعات يتعاون فى مجالات الدفاع المدنى والمقاومة الشعبية ، نساؤنا وبناتنا فى الخدمة الطبية .

ولكن يبقى عدد لايستهان به يمكن أن يوجه إلى رعاية الصغار على مستوى الحي . نعم هناك دروس بالراديو ، ولكنها عمليًّا لا تكفى ، وبخاصة فى مجالات العلوم والرياضة . . ومن الطبيعى أن تتسع دائرة الإفادة والاستفادة . ولكن بعض الأسر قامت بتجربة طيبة يمكن أن تتسع . . لقد كوّن بعض الجيران فصولا صغيرة متعاونين متطوعين : يتولى فيها الكبار التدريس للصغار ؛ وغير المشتغلين فى الدفاع المدنى والمقاومة الشعبية يجدون مجالا طيبًّا فى رعاية هذا الجيل الجديد الحبيب . سمعت عن فصول يتعاون فيها آباء فى سن المعاش ، ونساء فضليات . وبرزت إيجابيات طيبة وثقت الصلة بين الجيران .

إن فيتنام لجأت إلى هذه التجربة ونظمت فصولها على هذا الأسلوب ، وفيها تجربة أخرى سأعرضها فى الفقرة التالية والأخيرة .

٥ ـ بحوث علمية من أجل المعركة :

هذه التجربة تتعلق بالرعاية الطبية فى ظل المعركة . لقد اتجهت الجامعات هناك ومعاهد البحث العلمى إلى « ترشيد » ما عندهم من تراث . وأقول : قام بهذا أساتذة الجامعات ومعاهد البحوث المختصة ، فأعادوا تقويم العلاج التقليدى المتوارث على أسس علمية حديثة ، ووسعوا دائرة الاستفادة الطبية من الإنتاج المحلى .

إننا كما ننتزع النصر ونسترد الأرض والكرامة والأمل ، علينا أن نتخذ من هذا كله انطلاقة شاملة نتعاون فيها جميعًا على تحمل أعباء معركة التحرير وبناء المجتمع الجديد .

بطاقات عيد من القرآن الكريم *

أكتب تحية العيد إلى أبنائنا وإخوتنا وأهلنا فى الجبهة المقاتلة وفى القاعدة الشعبية الصامدة ، وأمتنا العربية والإسلامية ، وكل محب للسلام مؤيد لحقنا فى معركتنا المقدسة . أكتب والأحداث سريعة متدفقة ، وأذنى على نشرات الأخبار ، وقلبى — ككل مواطن — مع كل مواطن — فى موقع عمله — تحدده مسئولية نحملها جميعاً فى ذروة لعلها أعلى ذروات نضالنا الطويل .

أكتب وأمامى كتاب الله الذى دعانا إلى الإيمان بالحق والدفاع عنه والتصديق بكل نبى ورسول . وددت أن أبعث بطاقة عيد إلى كل محارب شريف على ضفتى القناة وفى قلب سيناء والجولان والأرض السليبة . ماذا أكتب له وهو يكتب بالعرق والدم سطور النضال .. ؟ وعُدْت إلى كتاب الله وتصورت آياته بطاقات عيد يبعثها القرآن الكريم إلى أبطالنا تحية من كتاب الله إلى الذين يحاربون معركتنا من أجل الحق والعدل والسلام ، وهى فى القرآن من أسماء الله الحسنى . .

ولنقرأ معاً عشراً من هذه البطاقات . .

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ غرة شوال ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ م .

١ – أخي . . وأنت تحارب من أجل حقك وأرضك . معك أمر ربك ووعده بالنصر : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » . (الحج : ٣٩) .

٢ – أخي . . سلاحك امتداد وجودك ودرع وطنك . . وعين عدوك على هذا السلاح وعلى قدرتك القتالية فى استخدامه . فاحذر مفاجآت العدو : « وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً » (النساء : ١٠٢) .

٣ – كل القوة مطلوبة فى المعركة . قوة قادرة على إرهاب الخصم مع حساب احتياط لما قد يلقيه العدو فى أرض المعركة على غير انتظار ، واقرأ فى هذا قول الله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » (الأنفال : ٦٠) .

٤ – كن دائمًا صلبًا فى الحق وفى مهاجمة الخصم . وفى هذا يقول الله عن أعدائك ، أعداء الله : « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ

فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » (الأنفال : ٥٧) ، ضربات قوية صامدة منظمة لمقدمة الجيش المعتدى يضطرب معها أى إمداد جديد له .

٥ ـ أخي . . سلاحك فى المعركة : عدّتك وإيمانك . . وبين عينيك قول الله : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (الأنفال : ٤٥) . نداء التكبير ارتفع فكان أعلى نداء . . ومعه تسبيح الرصاص والقذائف والخطوة الثابتة : « وإِن مِّنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » (الإسراء : ٤٤) . وأنت فى مسيرتك المؤمنة إلى الهدف الكبير تردد دعاء المحاربين الصالحين من قبلك : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ » (آل عمران : ١٤٧) .

٦ ـ أخي . . وراءك جبهة داخلية متماسكة مشاركة فى شرف الجهاد تزيدها الأحداث المتلاحقة والضغوط صلابة وتماسكًا ويقظة ضد الحرب النفسية : « وإِن يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُم إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (الأنفال : ٦٢ – ٦٣) .

٧ – والجبهة المحاربة والقاعدة الصامدة ملتفة حول قيادتها الرشيدة المؤمنة متذكرة نصح الله : « واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا » (آل عمران : ١٠٣) ، وقوله : « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (الأنفال : ٤٦) .

٨ – أخي . . وبين الذين هاجروا من الأرض السليبة ومناطق القتال ومن استقبلوهم من إخوانهم ماتعلمناه من آبائنا من حب وإيثار . . حتى يعودوا إلى الأرض الغالية بنصر من الله وعون ، إنهم يستضيئون بقول الله : « والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (الحشر : ٩) .

٩ – أخي . . ولقد سبق بعضنا إلى الله فى أشرف المواقع) . هؤلاء

يخبرنا الله عنهم وهم فى الرفيق الأعلى بقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » (آل عمران : ١٦٩ – ١٧١) .

ألم تر كيف جمع الله لهم فى هذه الآيات عشر عطايا إلهية ما جمعها لغيرهم فى القرآن . . ولنرجع إليها معـًا (١) أحياء (٢) عند ربهم (٣) يرزقون (٤) فرحين بما آتاهم الله من فضله (٥) ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم (٦) ألا خوف عليهم (٧) ولا هم يحزنون (٨) يستبشرون بنعمة من الله (٩) وفضل (١٠) وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .

١٠ – أخى . . ندعو الله أن يكتب لنا النصر الذى وعده عباده المؤمنين الصابرين . نصراً قدمنا له ونقدم له أنفسنا وأموالنا عالمين أن نصر الله قريب بعد بذل أقصى الجهد المادى والنفسى ، ولنتأمل معـًا ثمرة ذلك فى الدنيا والآخرة : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ

البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ، حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ » . (البقرة : ٢١٤) ؛ والبأساء اختبار فى الأموال ، والضراء فى الأبدان ، والزلزلة فى العقيدة ؛ اختبار شامل للمجتمع فى كل طاقاته المادية والمعنوية من بعده النصر القريب . . وهو بدوره مرحلة على طريق الجهاد الطويل . .

القرآن .. والنظرة المتوازنة إلى الأحداث *

يجمع المنهج القرآنى فى نظرته إلى الأحداث بين بعدين :

— البعد الشامل الذى يمثل قصة الوجود ونبضاته الكبرى من خلق السموات والأرض وحركة التاريخ والجزاء الأخروى .

— البعد الموضوعى أو الدقيق ويتمثل فى دراسة محدودة من قصص الأنبياء أو غزوة من الغزوات .. حتى كأن البشر أمامك أحياء فى الميدان : ترى ما على الوجوه من قسمات ، وما فى النفوس من خلجات . ثم يختم القرآن القصة بربطها بالنبضات الكبرى لحركة التاريخ .

— لماذا ؟

— حتى نتعود وضع الأحداث فى حجمها الصحيح دون تهويل أو تهوين .. نتعود التناسب بين الجزء والكل . بين المنظور الذى يغطى مساحة واسعة من المكان والزمان ، والقطاع الدقيق فى زمانه ومكانه المحدودين .

• وأعتقد أننا بحاجة إلى أن نتذاكر ذلك مع موج الأحداث المتدفق حتى يكون عونًا على الاحتفاظ بالتناسب فى النظرة بين أحداث الحياة

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٨ من شوال ١٣٩٣ الموافق ٢ نوفمبر ١٩٧٣ م ، بعد الثغرة التى أحدثتها إسرائيل واندفعت منها بعض قواتها إلى الضفة الغربية للقناة .

اليومية فى معركتنا والخطوط العريضة لكفاحنا الطويل من أجل استرداد حقنا وبناء مجتمعنا .

نظرة شاملة :

فى هذا الضوء نستطيع أن ننظر إلى المجتمع النبوى فى المدينة – كنموذج – نظرة شاملة . وفى هذا نجد :

١ – عسكريًّا : سبعًا وعشرين غزوةً ، وسبعًا وأربعين سَرِيّةً (وهى العمليات العسكرية التى لم يشارك فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه) وهذه أرقام الواقدى فى مغازيه . .

٢ – اقتصاديًّا : إقامة اقتصاد جديد له قواعده العريضة من احترام العمل ودعم الإنتاج وعدالة التوزيع وكفالة المحتاج والتراحم ومنع استغلال الإنسان للإنسان .

٣ – سياسيًّا : إقرار مبدأ الشورى : رأسيًّا – بين القيادة والقاعدة ، وأفقيًّا – فيما بين المؤمنين . وتوسيع دائرة العمل السياسى على الصعيد المحلى والعالمى بالمعاهدات والمبعوثين والرسائل .

٤ – اجتماعيًّا : أسس جديدة لبناء الفرد وتكوين الأسرة على أساس من الإيمان والمودة والرحمة .

٥ – تكامليًّا : تنمية المجتمع فى صيغة تجمع التوازن بين الفرد والجماعة ، بين الاقتصاد والسياسة والحرب ، بين بناء المجتمع والدفاع عنه ، بين قوة القاعدة وامتداد خطوط العمل الخارجية .

هذا التلخيص المكثف يمثل منظوراً شاملا لمجتمع المدينة فى السنوات العشر المليئة بالبناء والكفاح والإنجازات . وهى بدورها لا نستطيع فصلها عما سبقها من إعداد فى مكة وتجارب عميقة عاشها المسلمون ثلاثة عشر عامًا تحت ضغوط بدنية واقتصادية ونفسية كأنهم فى « مصنع » أعدته العناية الإلهية لإخراج هذه النوعية الممتازة من البشر . . ولا نستطيع أيضًا أن نفصله عما حمل من أعباء حروب الردة بعد الرسول عليه السلام وتربص القوى المضادة به على الصعيد العربى والدولى ، ثم الانطلاقة الكبيرة وراء الجزيرة العربية بعد أن سيطرت القيادة المؤمنة على زمام الأحداث . .

نظرات موضعية :

وإذا كان القرآن يعنى بالخطوط العريضة لحركة التاريخ والمجتمع الإنسانى والإسلامى ، فإنه ليذكر نماذج من الأحداث الموضوعية معقبًا عليها بالعبرة منها ، ليضعها فى حجمها الصحيح ، ويتخذ منها « مَصْلا » مساعداً على تجنب الخطأ ، ونوراً معينًا على متابعة السير .

ووسط زحف الإسلام فى قطاعات الحياة قد تحدث موجات مرتدة لها رمل وزبد ودوىّ واتجاه مضاد . . ولكنها لا تعوق المسيرة . وعلى طريق الجهاد يسقط شهداء : عيوننا على رفاتهم الطاهر ، وعيون قلوبنا تتبع أرواحهم الطاهرة إلى جوار ربها ، ولكن مع هذا لا يضطرب الطريق تحت أقدامنا ولا الرؤية أمامنا .

ولنعد إلى نماذج من صدر الإسلام :

● فى مجتمع مكة ؛ استطاع كفار قريش فرض حصار اقتصادى على المسلمين فى شعْب بنى هاشم ثلاث سنوات .

● فى المدينة ؛ نجح خالد بن الوليد فى غزوة «أحد» فى عملية الالتفاف حول الجيش الإسلامى وفتح ثغرة أدت إلى مزيد من الضحايا كادت بها أن تنقلب موازين المعركة ، لولا ثبات من القيادة والمؤمنين عجزت معه قريش عن اقتحام قاعدة الإسلام .

● فى غزوة مؤتة ؛ لقى ثلاثة من القواد مصرعهم متتابعين ، واضطر خالد بن الوليد أن يعود بالجيش عندما تحددت خطورة الموقف عليه ، ليستعد بعد هذا لدورة جديدة . .

● فى حنين ؛ كادت الدائرة تدور على المسلمين عند ما أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ثم ولوا مدبرين حتى أنزل الله سكينته على رسوله والمؤمنين وثبت المسلمون .

● فى المدينة ؛ كانت مشكلات المنافقين فى القاعدة والجبهة فى أكثر من غزوة من أوضحها غزوة تبوك ، مؤامرات قبلها وفى أثنائها وبعدها . ولنا أن نعود فيها إلى سورة التوبة لنرى صنوف النفاق وأساليبه . .

هذه العقبات على الطريق لم تكن تعوق المسيرة ، وحل أى تناقض اجتماعى لم يكن يعنى السيطرة الكاملة عليه ، وإنما كان يحمل بذور مرحلة جديدة على الطريق لها مسئولياتها وتناقضاتها وتحدياتها . . .

هكذا الحياة فى مسارها الصاعد . .

وفى صراعنا مع إسرائيل والصهيونية العالمية نحن فى حاجة إلى أن نستعيد هذه النظرة القرآنية لنضع أحداث الحياة اليومية فى حجمها الصحيح . ومع وجود بعض الموجات المرتدة علينا أن نذكر دائمًا حقائق المعركة الكبرى وإنجازاتها ، وكيف استطاعت أن تسجل لأول مرة قتالا على هذا الاتساع والعمق والتنظيم كان من ورائه استرداد أرض وحق بالقوة ، وجمع كلمة العرب ، وتأييد من أرض الإسلام وكل محب للسلام ، وإعادة الثقة العملية عن طريق الممارسة إلى شبابنا ، واكتساب قطاعات كبيرة من الرأى العام العالمى إلى حقنا وصفنا ، ودفع قضيتنا — بالحق والعدل — إلى ذروة الاهتمام العالمى . .

نحن فى حاجة إلى كل من النظرتين الشاملة والموضعية ، وكلتاهما مما أوصانا به ربنا فى القرآن الكريم : النظرة بين مسار الكفاح الكبير وعقبات وإنجازات الطريق اليومية .

مع أبطال التحرير *

تلاقت وجوهنا فى ابتسامة :

– كيف الحال ؟

– الحمد لله . .

وامتدت يده إلى علبة شفافة إلى جواره . وأخرج منها شظية سمكها سنتيمتر وطولها وعرضها نحو ٤×٣ سنتيمترات ، حادة الزوايا ، كثيرة الأطراف ، كأنها عنكبوت حديدى . . وتركزت أعيننا على الشظية وتناقلتها أيدينا . ثم تابع حديثه قائلا :

– هذه الشظية استخرجها أطباء المستشفى من ساقى . ستجد كثيرين من المقاتلين هنا يحتفظون بالشظايا والطلقات المستخرجة من أجسامهم . إصابات فوق أرض سيناء . فى معركة التحرير . ليتك رأيتنا بعد العبور عندما قبلنا ثراها ، وحملنا ترابها بين أيدينا كالحصاد الجديد ، وسجدنا على أرضها شكراً لله . . لقاء بعد فراق ست سنوات .

كنا فى مستشفى الجمهورية صباح الأحد الماضى نزور أبناءنا أبطال معركة التحرير . . ونظرت إلى الشظية . . من أين جاءت ؟

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ١١ نوفبر ١٩٧٣ م .

من الذى قدمها سلاح عدوان يعبر المحيطات ويقطع آلاف الأميال حتى يصل إلى إسرائيل ، ثم يطلقها العدو فوق أرضنا على أبنائنا ونحن ندافع عن ترابنا ضد عدو طارئ ما له فى أرضنا من قرار . .

هذا الجيل من شبابنا المقاتل يمثل التحدى الحى الإيجابى للعدوان الإسرائيلى والتمرد الواعى العلمى على ما أراد العدو أن يجعله أمراً واقعاً . .

وحدة وطنية :

كانت الزيارة مع الزميل ألبرت برسوم سلامة وزير الدولة لشئون مجلس الشعب ، وحياه أحد المقاتلين قائلاً :

– تستطيعون أن تروا حقيقةالوحدة الوطنية فى ميدان القتال . نحن أهل السلام والإسلام . سلام دعا إليه سيدنا عيسى . وإسلام دعا إليه سيدنا محمد ، عليهما الصلاة والسلام .

أما أعداؤنا فهم أهل الغدر والعدوان ، هم أعداء السلام والإسلام قنابلهم لا تفرق بين مسلم وقبطى ، ولا بين مسجد وكنيسة ، الإخاء فى مصر أصيل ، إخاء فى أشرف المواقع ، فى أرض المعركة ، إخاء العبور والتحرير والوطن .

وابتسم أصحابه من قوله قائلين :

– إنه شيخنا وإمامنا . . يحفظ القرآن والكثير من الشعر ، يصلى جالساً من إصابته .

أبو الشهداء :

وعلى سرير آخر كهل فى نظرته وداعة وإيمان عميق تترجمه كلماته :

– الحمد لله ، لقد استشهد لى ولدان فى حرب ٦٧ رحمهما الله . سبقانى إليه

وشاركت من موقعى فى المعركة ، وأملى أن يسعدنى ربى بالشهادة فى سبيله .

ودارت عيناه فى الشباب من حوله وهو يقول :

– كل هؤلاء أبنائى . . أبنائى من حولى . . حفظهم الله . .

خطوط القوة :

ومن حجرة إلى حجرة ننتقل . نسمع قصائد الشعر والزجل ، ويقدم إلى مقاتل نماذج من خط جميل وهو يقول :

– هذه أولى تجاربى بيدى اليسرى . وهى الباقية . فى الخط تقدم كبير . ما رأيك ؟ كنت خطاطاً . . وهذه مجموعة لوحاتى .

وأقرأ معه قول الله تعالى : « إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ

لَكُمْ » (آل عمران : ١٦٠) « نَصْرٌ مِّنْ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » (الصف : ١٣) وقصائد حنين إلى المعركة ورغبة عاجلة فى الشفاء للعودة إلى متابعة الجهاد .

وأرى الشباب أمامى لوحة حية كبيرة للمستقبل . . وأرى إيمانهم بوحدتهم « خطوط قوة » فى هذه اللوحة والدم الجديد الذى يسرى فى عروقها ليمنحها الحياة المتجددة .

خطوط القوة التى حلت محل خطوط قديمة . . بارليف . . الخط الذى تبرأ منه صاحبه ، وتنكر له حتى من أقاموه ، فأصبح عندهم قطعة جبن ، ونقط حراسة متفرقة . . هكذا غدرهم حتى بالحصون التى احتموا بها ! !

هنا أهلى :

وأسأل مقاتلا آخر :

ــ أى خدمة ؟

فيقول شكراً . . هنا كلهم أهلى . وأكثر من أهلى . الأطباء . المرضون ، العمال . .

فقلت : كلنا لك أهل .

فكرر قوله : إنهم هنا أكثر من أهلى . . إننى أستحى من خلع ملابسى أمام أبى وأمى . هنا عالجوا جراحى واستخرجوا هذه الرصاصة من

جسمي . وامتدت يده إلى كشف الأشعة إلى جواره وأشار إلى رصاصة مائلة مجاورة للعظم وهو يقول :

– كان المصحف الشريف فى جيبي واخترقته الرصاصة ، كان للمصحف غلاف جلدى قوى ومالت الرصاصة بعد اختراقه واستقرت فى هذا المكان إلى جوار العظم . .

شاب فيه صفاء قريتنا المصرية وخشونتها وطيبتها . . شاب أخضر الورق ، صلب العود ، عميق الصوت ، رطب الكلمة .

ويبتسم الطبيب قائلا :

– لقد أصبحوا مهرة فى قراءة الأشعة .. مهارتهم فى الميدان .. هم حقًّا رجالنا وأملنا . . ويتابع مقاتل آخر القول :

– جراحنا جراح رجال . . فى الصدور والمواجهة . سنعود إلى أعدائنا لنحرر أرضنا ؛ أرض آبائنا وأجدادنا . سنحررها بإذن الله . .

مذكرات :

وتمتد أيديهم إلى مذكراتهم تخط فيها سطوراً . . أو إلى مصاحفهم المهداة يكتب فيها الزميل ألبرت برسوم سلامة وأكتب معه كلمات تحية . ويعى الذهن بعض ما خطه القلم وما فاضت به النفس . .

● يابنى . . تطلب منى أن أكتب إليك ؟ منك أكتب وعنك أكتب . .

● أنتم لنا فجر جديد . شهادة ميلاد بطولة وكرامة ، وعلامة منيرة على طريق العودة ، وما زال الطريق طويلا .

● أدعو الله أن تكونوا أسعد منا حظـًا ، وإلى لقاء فى العريش ودير سانت كاترين والقدس . .

● بأيديكم تحولت الآمال إلى أعمال . ياصناع المستقبل بالعرق والدم والعلم والإيمان .

● لقد تفجرت فيكم الشظايا . . نعم . . ولكنكم ظللتم وحدة متماسكة . هذا مصيرهم ومصيركم . . تفجرات منهم ووحدة وتماسك منكم .

وأعود فأقول : أمامنا طريق طويل . . ندعو الله أن يثبت خطواتنا عليه استعادة لأرضنا السليبة وحقوقنا المشروعة وبناء مجتمعنا الجديد .

المال والبنون . . في المعركة *

(١)

كل من حوله ينادونه « بابا الحاج » : العمال الذين تعلموا على يديه ، الجيران الذين يساكنونه ، صاحب المقهى الذى يحضر له الطلبات ، رواد المصلى الصغير الذى أقاموه فى رحبة تتوسط محلاتهم . فيه بساطة ومسحة جمال :

جلست إليه بعد خطاب أرسله إلىّ فى الصباح ، لم أملك معه إلاّ الاتصال به هاتفيًّا لألقاه بعد انتهاء العمل . وأفسح لى إلى جواره مكانا . وحولنا تطل الكتب . كثيرة ، قريبة ، صديقة . ورزم أوراق بيضاء كالأرض الطيبة تنتظر حروف الطباعة تنزل عليها كماء السماء فتحيا به ، ثم تفيض بالمعرفة . والمطبعة لا تكاد تطبع إلا كتاب الله — نور الحياة — وما يتصل به من علم .

وبين يديه نصوص وأصول ، يعاونه على قراءتها مصباح فوقه ، ومنظار على عينيه ، وعدسة مكبرة أمامه .

جو يحنو بعضه على بعض ، تفوح منه رائحة التاريخ والإيمان والعمل الدءوب فى ظلال من الأبوة السابغة .

---

* نشر بجريدة الأهرام . عددها الصادر بتاريخ ٢ من ذى القعدة ١٣٩٣ ه الموافق ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ م .

ودخل ولده . . وبدأنا نعرض معًا لوحات فنية من الخط العربى ، فيها آيات من كتاب الله ، وإفادة – فى الإخراج – من أساليب العلم الحديث فى الحفر والتلوين . وتوقفنا عند قياس بعض الأبعاد . فسارعت يده إلى المتر تقيس فى دقة وثقة وعلت وجهه ابتسامة حية حين اطمأن إلى دقة القياس . ثم أشار إلى ميل فى خط ، أرجعه الابن إلى إمكانيات الحفر وسعة الأحواض .

ورأيت فيه روح حياتنا : إيمانًا وعملا ، ودقة ودأبًا ، وتطوراً وأصالة ، صفحة من حياتنا بين صحائف قبله وبعده .

● من قبله عاش الآباء هذا الأسلوب ، يحفظون التراث القديم ويضيفون إليه ، وينشئون دور الحكمة والمراصد ، يصححون بقياساتها الدقيقة أخطاء علمية ، مع الاعتراف بالجميل لمن سبق على طريق العلم . ويرابطون فى العواصم والثغور ، يدفعون العدوان ويستردون الأرض السليبة والحق المغتصب . .

● ومن بعده أبناء فى الجبهة على مستويات العلم الحديثة والإيمان . فى كتائب الصواريخ ، وفى عبور القناة . . بطولات فى شرقها وغربها .

● وهو هنا فى القاهرة مع زوجه الجليلة يشاركه بعض أهله فى عمله وبعضهم فى ظل زعايته .

● خيط من حياتنا يمتد كعروق المنجم القديم العميق . . نأخذ منه الكثير وننتظر منه الكثير .

● وراجعنا معًا بعض مخطوطات بقدر ما اتسع الوقت . . ومن حولنا – من حين إلى حين – تطل بعض الوجوه تحية وسلامًا . وجوه مصرية مؤمنة فيها وداعة الحقل وشموخ سيناء وفيض النيل .

● وتتابعت دعواتهم لقواتنا المسلحة وأبنائنا المقاتلين أبطال العبور والتحرير :

– كلنا لنا أولاد فى الجبهة . منصورون إن شاء الله . سيعودون بالنصر والسلامة ، الله معهم يحفظهم ويرعاهم .

(٢)

وقلت له : أستأذنك فى نشر خطابك .

فأبى قائلا : هذا سر بينى وبينك .

قلت : أستأذنك فى نشر بعض فقراته دون ذكر الاسم . فما فيه هو حق أمة أنجبتك وأنجبت أبناءك . ورعاية كريمة منك ومن السيدة الجليلة – حفظها الله – فاضت على الأبناء فسعدت وسعدنا بهم أبطالا

وأخيراً وافق على نشر أجزاء من خطابه دون ذكر الاسم .

وعدت إلى الخطاب أتلوه . أحس فى كلماته جلال المشيب . وقد يشيب الخط وتمر عليه رياح الزمن ، فتحنى بعض حروفه ، وتبدو خاشعة . ولكنى أحسست خشوعها لله وحده . وبدت الثنيّات فى بعض الحروف مع تدفق الفكر وعمق الإيمان كأنها ثنيّات نهر فياض بالحبر

وأقرأ فى خطابه :

« أعز الأخوة وأحب الأبناء . .

سلام من الله تعالى عليك . . .

. . . أما نفسى فقد وهن عظمها ، وأدركها الكبر ، ومسها الخور ، فاستعضت عنها بمن هم أغلى عندى منها : وهم أربعة من خيرة أبنائى : بعضهم فى شرقى القناة ، وبعضهم فى غربها . وقد بلغنى من بعض قادتهم : بلاؤهم الحسن !

وأرجو من المولى سبحانه : أن يجمعنى بهم — كما يشاء فى الدنيا ، أو فى مستقر رحمته ، وأنا — وحقه — راض بما يرضيه !

بقى الجهاد بالمال — وهو رخيص — وقد أبدو عاجزاً عنه .

ولكن كيف ألقى الله وأنا محتفظ ببعض المال ، خشية العيلة والعيال ؟

وكيف يضيع عيال وعد المولى الكريم بحفظهم بعدى وكلاءتهم ؟

وكيف يضيع مال وعد الكريم بخلفه والجزاء عليه ؟

هذا وقد أرسلت طى هذا ما استطعت جمعه — كسيراً خجلا — لا تقوى ثروتى على غيره ، ولا تقوى نفسى على منعه .

والله أسأل أن يتم على الأمة الإسلامية ما بدأه من نصر وظفر ، ورفعة ومنعة .

وأن يغفر لنا جميعاً تقصيرنا فى حقه ، وانصرافنا إلى غيره ، حتى كاد اليأس يقتلنا ، والبؤس يضنينا ويضيعنا .

ورجائى إليك – وأنت بطبيعة الحال تحس ما بينى وبينك من ود أكيد وحب وطيد – أن تجعل ذلك سرًّا بينى وبينك لا يعلمه الخالق سبحانه .

وإنى أستحلفك بالمولى الذى خلقك ، وبالرسول الذى تسير على هديه ، أن تنزل على إرادتى .

والله تعالى يوفقك إلى ما يسعدك بسعادة أمتك ، ويهديك إلى ما يرضيك فى دنياك وأخراك . والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته .

٢٥/١٠/١٩٧٣ (التوقيع)

وكان الشيك المرفق من أربعة أرقام . . أرسلته إلى مساره الرسمى مع التوصية بالاحتفاظ بالاسم .

أربعة أرقام . . وأربعة أبناء فى الجبهة . .

المال والبنون فى المعركة . .

وتحية إلى الوالد الجليل . . إلى الآباء والأمهات صناع الأبطال فى إيمان وصمت ونبل . . الذين رعوا جيلا عبر بنا إلى شاطئ التحرير ، واخترقنا به حاجز الخوف من الموت والأنفاق والقاء العدو . . وأقمنا حياتنا على الإيمان والعلم « أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ » (الأنعام : ٨٢) .

أربع آيات قرآنية . . في الحرب والسلام*

جاءت هذه الآيات فى سورة الأنفال ، وكان نزولها بعد انتصار المسلمين فى غزوة بدر الكبرى ، المعركة التى تيمنت قواتنا المسلحة باسمها فاتخذته لمعركة العاشر من رمضان (٦ أكتوبر) .

ولنقرأ معًا هذه الآيات الكريمة :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ . وإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (الأنفال : ٦٠ – ٦٣)

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٢٨ من ذى القعدة ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ م .

وتبدو من الآيات ثلاثة توجيهات أساسية ، أولها يتعلق بالاستعداد الدائم لحرب العدو ، والثانى بالسلام ، والثالث بموقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) والذين معه إذا أراد العدو الخديعة . ولنقف قليلا عند كل من هذه التوجيهات .

الحرب :

جاء الأمر بالاستعداد لها أمراً شاملا موجهًا إلى الأمة « وأعدوا » قيادة وشعبًا وجيشًا . . أمراً بإعداد « ما استطعتم » بكل طاقة الإيمان فى القلوب والإمكانات فى المجتمع . من أجل هذا جاءت كلمة « قوة » نكرةً تقتضى شمول الاستعداد ، وخص الخيل باعتبارها — وقتئذ — أقوى قوة ضاربة . وبها أقسم فى موضع آخر فى الكتاب العزيز فقال : « وَالْعادِياتِ ضَبْحاً ، فَالْمُورِياتِ قَدْحاً ، فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً » (العاديات : ١ — ٥) . ويعقب الإمام القرطبى على رباط الخيل بقوله . . « وهى أقوى القوة وأشدّ العدّة وحصون الفرسان . وبها يجال فى الميدان ، خصها بالذكر تشريفًا ، وأقسم بغبارها تكريمًا » (تفسير القرطبى ٨ : ٣٧) . ويلحق بالخيل — باعتبارها أقوى وأشد العدة — ما انتهى إليه العقل الإنسانى من قوى ضاربة جديدة فى الميدان . الطائرات ، الصواريخ ، المدرعات ، هى الآن العاديات

فى ميدان القتال . . لها ضبحها وقدحها . هذا المستوى العالى من الاستعداد ، علينا أن ندعمه باستمرار ليكون قادراً على إرهاب عدو منظور ، مع احتياط لعدو غير منظور قد نصطدم به فى الميدان على غير انتظار . نرى هذا فى قوله تعالى : « عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » .

وجماع كل الجهد المبذول من أجل الكفاية القتالية فى سبيل الله ، نستحق جزاءه نصراً فى الدنيا ونعيماً فى الآخرة ، دون أن نظلم فى ثمار النصر فى الحياة ولا الجزاء الكريم يوم نلقى الله .

السلام :

هذا الاستعداد النامى لا يصرف المجتمع عن سماع صوت السلام القائم على العدل . من أجل هذا تأتى الآية التالية : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . وهذه الآية ينبغى أن تقرأ موصولة بما قبلها وما بعدها ، وألا تفسر مقطوعة عن السياق .

ولنتأمل فى عمق بين صدر الآيتين : وأعدّوا . . وإن جنحوا الأول أمر دائم قائم . أمر كالصلاة والصوم . فيه الاستمرار والحشد الشامل لكل طاقات المجتمع لتكون على استعداد للتحرك متى أمرتها القيادة ، والثانى حوار على طريق استخلاص الحق . حوار بالكلمة فى حين يكون الاستعداد مستمراً ، حوار ندخله بعين مفتوحة وآذان مرهفة . ومن هنا تأتى بلاغة القرآن فى ذكر صفتين من صفات الله « وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » . .

حواسك كلها فى الحوار ينبغى أن تكون يقظة : تحب السلام مؤمنـًا بأنه من أسماء الله الحسنى ، ولكن عليك باليقظة الكاملة لكل حركة ولكل كلمة . .

موقف جديد :

وإذا ما أراد العدو خديعتك وخيانتك فإن الآية تلفتك إلى أمرين : قوة الإيمان وقوة المؤمنين . . المؤمنين فى الجيش والقاعدة .

ولم تقل الآية : تابع الحرب أو تابع الحوار ، وإنما هى تترك للقائد هنا حرية التصرف فى اختيار الموقف الملائم بما يحقق الهدف المطلوب . .

حسبك الله . . أى الله كافيك . . هو حسبك وهو حسب من معك من المؤمنين فإذا ما وجدت أفضل السبل العودة إلى سلاحك فعد إليه . . وإذا كان القتال مكتوبـًا علينا وهو صعب وله أخطاره فلنخضه وبين أعيننا قول الله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ » (البقرة : ٢١٦) .

هذه العودة تقتضى قوة إيمان وتماسك فى الجيش والشعب . . وهما ركيزتان لأى تحرك ناجح : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين

وألف بين قلوبهم » ، وهذا التأليف بين القلوب والحب الغامر هو ما نشهده الآن فى كل مكان ، سواء على جبهة القتال أو الساحة الداخلية . هذا التماسك نرى مظاهره ونذكر نعمة الله فى قوله : « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

ومرة أخرى نعود إلى صفتين من صفات الله : « عزيز حكيم » .. وعلينا أن نخوض معاركنا بحكمة ، ومن أجل عزة أوطاننا ومجتمعنا . . عزة نستمدها من عزة السلاح والترابط والإيمان . .

وإذا ما تابعنا الآيات بعد هذا وجدناها تحريضًا على القتال ، قتال عدو قد يكون متفوقًا فى بعض المجالات والأسلحة ، وتحذيراً من خياناته ومكايده وارتباطاته ، ودعوة إلى توسيع دائرة المحاربين ومجالات الجهاد وحشد جميع الطاقات وخوض المعركة ، حتى يتحقق النصر وتعلو كلمة السلام القائم على العدل . .

رسالة من سيناء إلى البيت الحرام *

فى هذا العيد أستطيع أن أكتب إليك ، وعلى وجهى ابتسامة ، وعلى أرضى أبناء أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وفى ثراى قبور شهداء أعزاء ، تتوجها خوذات كانت تغطى رؤسًا ما خفضت إلا لباريها الجبين . .

على أرضى دماء . . ورجال عادوا بعد غياب . إنهم أبنائى وكل العروبة أبنائى ، وكل أبناء الإسلام والسلام أبنائى .

اليوم أحسّ بكثير مما يربط بينى وبينك – يابيت الله – وقد سرت فيه الحياة ، ما شاهدته وأشاهده على أرضى يشدنى إليك وإلى حكمة مناسك الحج .

١ – الإحرام عندك رمز المساواة والتجرد :

وفوق أرضى إخاء بين الضباط والجنود ، بين القيادة والقاعدة ، بين الشعب والجيش . تجمعهم ثياب الميدان وروح الميدان ، إنه الإحرام للتحرير واسترداد بقية الأرض السليبة .

٢ – الطواف حولك رمز الوحدة والتوحيد :

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ العاشر من ذى الحجة ١٣٩٣ هـ الموافق ٣ يناير ١٩٧٤ م .

وفوق أرضى ثمار بشرية مشرقة من الوحدة الوطنية والعربية والتعاون الإسلامى وحب السلام القائم على العدل .

٣ — تقبيل الحجر الأسود عندك رمز الحب ، موضع واحد تلتقى عنده شفاه الملايين تردد فى شوق أطهر ما وعت القلوب ونطقت به الشفاه .

وعندى تفجرت الأرض عيونـًا حين قبلت ثراى أطهر الشفاه . وكان الماء دمع الفرح . ووددت لو تحول نخيلى إلى أيد تبادل الأبناء العناق والتحية .

٤ — وبين الصفا والمروة يسعى الحجاج مردّدين : الله أكبر ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا . .

وعلى غير اتفاق ، ومن أعماق القلوب ، كان نداء التحرير : الله أكبر ، الله أكبر تنطلق بها حناجر أبنائى يكتبونها على أعلامهم . يعبرون بها القناة ، يصعدون الحاجز الترابى ، يخترقون المعاقل والحصون ، يركزونها على التلال والروابى ، وتخفق فوق المآذن والصوارى . . الله أكبر . . أكبر من الخوف . من الموت . من العدو . من السلاح . وفى ظل الإيمان سار الزحف المقدس واثق الخطوة واضح الرؤية متجرداً للفداء مسلحـًا بالعلم والإيمان .

٥ — فى أيام منى عندك رجم إبليس رمزاً لكراهية الشر . . رجمه مع الهدف الكبير : الله أكبر . الله أكبر . وما أسعدنى برؤية شبابنا وهم يرجمون الدبابات وطائرات العدو ، يرجمونها بالصواريخ والقنابل

مستخدمين أحدث الأسلحة وأشدها تعقيداً ، بل إن منهم من جعل نفسه قذيفة بشرية : أحاط نفسه بالمفرقعات ، واندفع إلى دبابات العدو وأمر أصحابه بأن يفجروه وسطها ولقى ربه شهيداً بعد أن طهر بقعة غالية بدمه من دنس العدوان . وما زال الرجم مستمراً . إنها شعائر الله فى ميدان المعركة .

٦ – كانت حرب التحرير فى رمضان قبسًا من قصة إبراهيم والفداء : شبابنا فيها هم أبناء إسماعيل الذبيح – عليه السلام – ومصر أمنا هاجر ، والعبور هو السكين . . وفدى الله الذبيح ، وأصبحت معركة التحرير يوم عيد .

٧ – وأكرمنا الله فكانت خسائرنا – بالنسبة إلى العدو – محدودة . وأكرمنا الله بعد أن بذلنا أقصى الجهد فى الاستعداد العلمى والدينى ، السلاح تحركه أيد مؤمنة ، والإيمان سلاح ، والتنظيم دين ، والدين نظام .

٨ – يا بيت الله : عندما تقف الآلاف المؤلفة على جبل عرفات ضارعة مرددة نداء السلام ، ثم يفيضون إلى المشعر الحرام ومنى ومكة . . فليذكروا أننا نادينا بالسلام وسط المعركة. ونحن على استعداد لمتابعة المسيرة .. بل نحن فى المسيرة . والنهر يظل نهراً ما دام له مدد من ماء ، والمعركة تظل معركة ما دام لها مدد من الرجال والسلاح . فليكن من حولك مدداً للتحرير والسلام دائمًا . . وبهذا يحققون روح الحج وشعائر الله .

٩ — يابيت الله : إليك أمد بالتحية يداً وإلى بيت المقدس أمد يداً أخرى ، يدى الأولى تصل إليك . . ويدى الأخرى تريد أن تصل إلى بيت المقدس ، فهل يستطيع مَن حولك عون أبنائى على ذلك ؟ إنه قدرنا : أن نسترد أرضنا السليبة وحقوق شعب فلسطين ونطهر مسرى النبى عليه الصلاة والسلام وقبلتنا الأولى ودار الأنبياء ومدينة السلام .

طريق طويل . . ولكن إليك يأتى الناس من كل فج عميق . . فعلمهم يا بيت الله أن يكونوا للمعركة مدداً . . واجعل أفئدة من الناس تهوى إليها كما تهوى إليك . فأنا منك . . وقلعة أمامية لحماية المقدسات ومهبط الوحى . معركتى معركتك . هى معركة السلام . . والسلام من أسماء الله الحسنى . .

١٠ — تحية لك — يا بيت الله — من سيناء ، وعسى أن أستطيع فتح الطريق أمام حجاجك ليصلوا إلى القدس من جديد .. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

مع النسور المؤمنة

كان الحديث قصيراً سريعاً بين القائد والضابط المسئول عن الرحلة :

— الطائرة ؟

— تمام .

— التصريح والتوقيت ؟

— تمام .

وكنا قد استمعنا إلى عرض موجز مكثف لبناء سلاح الطيران المصرى فى هذه السنوات الست ، بين ليل الهزيمة فى عام ١٩٦٧ وفجر النصر فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ . ولقد جاء نصر الله فى رمضان ، شهر الفتح والنور والقرآن .

ست سنوات من البناء المتصل : بناء السلاح ، الرجال ، النظام ، كفاية التدريب ، مربض محصن لكل طائرة ، إيمان فى كل قلب ، علم فى كل رأس ، لياقة فى كل جسم ، تلاحم وأخوة سلاح فى الأرض والجو . هذا مع الحماية الدائمة لأجوائنا ، يحاربون بيد ، ويبنون السلاح بيد .

كلمات قلائل نقولها . . ولكن لها أبعادها ومعاناتها ، وأبطالها

وشهداؤها ، ثم فرحتها النبيلة بالنصر فى المعارك ومسئوليتها المستمرة قبل رمضان وبعده .

وحملتنا الطائرة من القاهرة إلى أحد مطاراتنا الحربية .

فى المطار :

المطار وسط أرضنا الزراعية الطيبة :

هو يبذر الأمل ويرعاه بالعلم والإيمان ويحصد النصر .

وأرضنا من حوله — أمنا الأرض — تنبت الرجال والزرع البهيج .

وفى المطار نسور مؤمنة تحمى الأرض وتدافع عن العرض .

وبدت ممرات الطائرات أبرز ملامح الصورة ، كما تبدو الترع وسط أرضنا الخضراء .

هذه تجرى عليها الطائرات ، وهذه تتدفق فيها المياه . وبهما معًا حياتنا وحماية الحياة .

واستقبلنا أبناؤنا الطيارون . أجسام ضامرة من التدريب ، وجوه مشرقه بالأمل ، نظرات واثقة مطمئنة . الجميع بملابس الطيران . آيات من القرآن الكريم على الخوذات والأحزمة : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . « نصر من الله وفتح قريب » . « ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى » . وشهادة التوحيد : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) . والمصاحف لا تفارق جيوبهم ، قريبة من قلوبهم .

ومن حولنا مرابض الطائرات كالأهرام الصغيرة وفيها أبناؤنا

المهندسون ومساعدوهم ، وقد تعلموا منطق الطائرات ، يتعاملون مع القذائف والصواريخ وخزانات الوقود وشاشات الرادار وأجهزة القياس والسرعة والارتفاع .

وسمعنا عما ابتكروا وصمموا وأضافوا إلى السلاح ، وعبروا عن إيمانهم بالله وحبهم لأوطانهم تعبيراً عملياً بدا فى كفاية الصيانة وتأمين الطائرات وزيادة فاعليتها

فى التدريب :

وحضرنا التدريب اليومى ..

طلقة ضوئية ، وتوجيهات سريعة ، فتندفع ثلاث مقاتلات متتابعة من مرابضها إلى الممر ، وتدور المحركات النفاثة فى عنف يقذف اللهب من ورائه . وفى لحظات يحتويها الجو ، وعيوننا من ورائها . وتدور حولنا دورة ، ثم تحلق عالياً لتستكمل دورة رأسية وظهرها إلى أسفل ، وتهبط فى انقضاض عنيف تقترب به من الأرض ، ثم تعود إلى التحليق وأصابعنا فى آذاننا من الدوىّ ، وتشتد تدريبات الاشتباك بكل ما تحمل من سرعة فى تغيير الاتجاه وزوايا الطيران والصعود والهبوط وتقاطع خطوط الهجوم وتوازيها وتقاربها وانتشارها .

ذروة من ذرا تحكم أبناء مصر فى الجو ، يعودون بعدها إلى الأرض . . وتلقاهم نسوراً باسمة بعد أن كانوا منذ لحظات يمرون فوقنا بأكثر من ضعفى سرعة الصوت .

نداء من أبنائنا الطيارين :

وضمنا لقاء حول فنجان شاى . كان أول ما تحدثوا فيه : « ألا يتعرض المواطنون لأى طيار تسقط به طائرته أو يهبط اضطراريّاً بمظلة ، يستوى فى هذا المصرى والإسرائيلى » .

وطلبوا أن تتعاون الصحافة وأجهزة الإعلام والتجمعات الشعبية فى المساجد والكنائس على نشر هذا الوعى وتعميقه . وطلبوا — تحديداً — أن يعنى الإخوة أئمة المساجد بذلك وأن يؤكدوه .

الطيار المصرى ثروة قومية غالية . . غالية بحق .

الطيار الإسرائيلى مصدر معلومات وأسير حرب . وجهة التعامل معه هى الدولة . ومن هنا وجب الحرص عليه وتسليمه إلى أقرب جهة أمن .

أما الاندفاع الذى سببته الهزيمة والثارات المكبوتة والصراخ غير الواعى : إسرائيلى إسرائيلى ! ! فلن يفيد أحداً ولا يستطيع المواطن العادى تقدير مداه . . والمواطن المصرى هو — قبل هذا وبعده — عون لجهة الأمر المختصة .

شهد الزيارة معى الزميل على عبدالرازق وزير التربية والتعليم (السابق) ، فكان أكثر الحديث عن المدرسة والمسجد . عن العلم والإيمان : فتح مجالات العلم لمن وراء هم من نسائهم يملأن وقتهن ويكسبن جديداً فى عصر أصبح العلم فيه من أخطر الأسلحة . كيف يستطيعون وهم

فى المطار متابعة التقدم العلمى وبعد المعارك . طبيعة التعاون والتنسيق بين الأجهزة العسكرية والمدنية . لقاءات وندوات فى الإذاعة والتليفزيون. لقاءات حية فى المطارات . كتب جديدة دينية ظهرت فى السوق يودون الحصول عليها . . .

كلها رغبات إلى أعلى . إلى المستقبل وآفاق جديدة فى العلم والإيمان .

مسئولية المستقبل :

كانوا يحسون مسئولية المستقبل وهم أبناؤه وصناعه . ما يستقبلونه من المسئولية أكبر مما أنجزوه . لقد فتحوا الباب الذى ظن العدو أن لن نستطيع اقتحامه . وعبرنا القناة ، وسيطرنا على الجو بعد أن كانت طائراتنا – من قبل – صيداً على الأرض للغدر وقلة الاستعداد ، وسقط من الحساب عامل المفاجأة التى حاول بها العدو تبرير ما لقيه فى رمضان ، تبريراً يحاول به التهوين من شأن التطور الضخم الذى حدث فى مجتمعنا : جيشاً وشعباً .

كان الحديث عن المستقبل أكثر منه عن الماضى . فالعاشر من رمضان . وما سبقه من جهد ، وما لحقه من أحداث ، ينبغى أن يكون قوة دافعة إلى عمل جديد وأفق أعلى ، لا قوة جاذبية تتحول بها الحركة المنطلقة الصاعدة إلى طواف حول مجد حققناه ، وعلينا الآن أن نتجاوزه .

وعدت من المطار أرى مستقبلنا كالطائرة . . حياتها حركتها وانطلاقها الواعى ، وسكونها خلود إلى الأرض . . ورأيت شبابنا روح المستقبل ، كما أن الطيار روح الطائرة وقلبها[1] .

---

(١) كتب هذا المقال على أثر زيارة لأحد مطاراتنا الحربية فى ١٠ يناير سنة ١٩٧٤ .

أمامكم هجرة . . *

بعد شهر من بدء العام الهجرى الجديد تشهد مدينة لاهور مؤتمر القمة الإسلامى الذى دعت إليه باكستان ، ونادت بأن يكون تركيزه على أمرين :

١ ــ الانسحاب الإسرائيلى من الأرض العربية السليبة .

٢ ــ الحفاظ على عروبة القدس .

وسبق هذا المؤتمر ثلاثة أحداث هامة فى الساحة العربية والإسلامية :

الأول : معركة العاشر من رمضان ١٣٩٣ : وهى قمة من قمم النضال الكبرى دخلت التاريخ مع قمتين كبيرتين :

حطين ، وكانت نقطة التحول الكبيرة فى صراعنا ضد الغزو الصليبى .

وعين جالوت ، وكانت نقطة التحول الكبير فى صراعنا ضد التتار .

وأهم وجه شبه بين المعارك الثلاث : أنها كانت عالمية المدى والتأثير . كانت القوى العربية المؤمنة فيها تقابل قوى غازية جاءت من وراء البحار أو السهوب ، وكان المنتظر أن تتجه الموجة التتارية

---

* نشرت بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ أول المحرم ١٣٩٤ هـ الموافق ٢٤ يناير ١٩٧٤ م .

إلى أوربا لولا تأثير من أمراء الصليبيين تحولت به الموجة إلى الجنوب الغربى نحو الشام وما وراءها فى مصر . واستطاعت القاعدة المصرية فى المعارك الثلاث أن تتعاون مع القوى العربية الإسلامية ، ووقف أبناء البلاد مدافعين عن العقيدة والأرض والعرض صفاً واحداً . .

وقد نعى مؤرخو أوربا على مسيحيي الشرق وقوفهم إلى جوار إخوانهم المسلمين ، فى حين كان أبناء الأرض ينطلقون من قاعدة الأخوة والسماحة والوطن الذى يظلهم جميعاً .

الثانى : مؤتمر القمة فى الجزائر بعد معركة رمضان : وكان التعبير السياسى عن النصر ، كان مؤتمر أفعال وتخطيط . واستطاع الوجود العربى فيه أن يمد معابر سياسية من التعاون والتفاهم على الصعيد العربى أولا ، ومع أفريقيا وأوربا ودول عدم الانحياز ، والقوى الكبرى فى العالم . .

وتحرك سلاح الطاقة فى الأيدى العربية . . والطاقة معركة لها أبعادها وتخطيطها وحساباتها القريبة والبعيدة .

ولا ريب فى أن معركة رمضان أعطت العمل العربى المشترك مفهوماً ومضموناً جديدين ، ونقلته نقلة واسعة إلى الساحة العالمية والعلمية . وأثبتت للعرب أنفسهم جانباً مما يستطيعون القيام به إذا ما أحسنوا تقدير واستخدام ما بين أيديهم من قوى فى عالم التجمع والأحداث الكبيرة .

وعبر الوجود العربى مخاضة التفرق ليضع أقدامه على أرض أكثر ثباتاً ، وأحاط نفسه بسياج من الفهم الواعى يحاول به أن يمنع

– ما استطاع – تشتت الجهود وتوزع الاتجاهات . .

الثالث : أن ما استطعنا الوصول إليه من فصل القوات المتحاربة وتثبيت أقدامنا على قطاع من الأرض السليبة ، قد دفعنا فيه ثمن تحرير كل حبة رمل ، من جهد أبطالنا ودماء شهدائنا وقوت أولادنا . . ونقلنا خط المواجهة العسكرية نحو الشرق متابعين العمل على الجبهة السورية الشقيقة . . متحركين فى الوقت نفسه بكل الحرية والفاعلية على الصعيد المحلى والعربى والعالمى فى المجالات التى يفتحها أمامنا العمل الواعى المتكامل من أجل الهدفين الكبيرين : استعادة الأرض السليبة والحفاظ على حقوق شعب فلسطين .

هذه هجرة :

هذه الأحداث الثلاثة الكبيرة والمتواصلة تمثل « هجرة » بالعمل من أجل قضية المصير . هجرة كان قبلها استعداد وبعدها مسئوليات .

هجرة لا نستطيع أن نفصلها عما سبقها من جهد صامت دائب فى إعداد القوات المسلحة والجبهة الداخلية والخطوط الموصلة بينهما . جهد على صعيدى العلم والإيمان ، بالعقيدة والعلم ، بالصف الواحد فى الصلاة وميدان القتال ، « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص » (الصف : ٤) .

وحقيقة الهجرة أنها انتقال بالعمل من مرحلة إلى مرحلة . . وروح الهجرة هى روح التغيير الصاعد دائمًا . . هجرة المجتمع إلى أفق أعلى

ودائرة أوسع ومستوى علمي أدق وأشمل . .

هجرة من العمل الجزئى إلى تصور شامل وتحديد مرن للأبعاد والمسئوليات فى منهجية تجمع بين الأصالة والمعاصرة سيراً إلى المستقبل . .

وجاء دور العمل الإسلامى :

إن العمل العربى قد قال كلمته . . قالتها بعض شعوب وحكومات المواجهة . . قالتها بالسلاح والعلم والإيمان . .

وما زالت تقولها . .

والآن جاء دور العمل على الصعيد الإسلامى فى عهد « ما بعد رمضان » ، عمل على مستوى وجودنا الجديد الذى تجاوز مرحلة القرارات النظرية والتأييد العاطفى . .

وإن القاعدة التى سارت عليها معركتنا أنها لا تطلب من أحد شيئاً . . وإنما تضع كل مسئول أمام مسئولياته لينطلق منها . .

ومسئوليات المعركة واضحة . .هناك إمكانيات واسعة فى الساحة الإسلامية ، وموارد اقتصادية كامنة فى الأرض أو نابتة منها ، وأرصدة فى البنوك ، وقدرات على التأثير السياسى والضغط والدولى .

هناك امتداد جغرافى من شواطئ المحيط الهادى إلى الأطلسى يجعل العالم الإسلامى قارة وُسْطَى بين قارات العالم القديم . هناك وزن استراتيجى ومواقع تأثير ونقط تحكم . .

صحيح أن جهداً غير قليل من طاقة العمل الإسلامى برز فى

مؤتمر القمة الإسلامى العربى حيث العروبة من أكبر أوعية الإسلام . . ولكن التحدى الكبير الذى يقابل الوجود الإسلامى على شموله هو المؤتمر المقبل ، والمستوى الذى يستطيع أن يحققه منسوبـًا إلى الأحداث الكبيرة التى تشهدها الساحة العربية والإسلامية .

التعاون الإسلامى المسيحى :

وأحس أنه على الصعيد الدينى ينبغى أن ينطلق العمل الإسلامى العالمى إلى أفق أوسع وأرحب ، وما تقوم به إسرائيل والصهيونية العالمية من محاولات للتأثير على العالم المسيحى وجذب قطاعات منه إلى صفهم أمر منشور ، وينبغى أن ندرسه بغير حساسيات . وما زال العمل الإسلامى قاصراً فى هذا المجال . . قاصراً مع أن الإسلام يمجد المسيح عليه السلام ، ومريم العذراء البتول ، ويؤمن بكل رسول أرسله الله تعالى ، ويحترم دور العبادة ، ويفتحها للعاكفين والعابدين . .

وهناك جهود محدودة على الصعيد العربى وإخاء طيب وتعاون فى المؤتمرات الدينية الدولية ، ولكن الأمر ينبغى أن يأخذ صورة أوسع وأكثر تنظيمـًا . .

وإذا كانت الكنائس الكبرى قد خصصت أقسامـًا للاتصال بغير المسيحيين ، وإسرائيل — بدورها — تقوم بجهد فى هذا المجال — أفلا ينبغى علينا أن ننظم هذا الأمر على الصعيد العالمى وقد أصبح الحوار صيغة عالمية . .

هذه جوانب من العمل نرجو أن يتسع لها العام الهجرى الجديد ، ليكون بحق هجرة إلى أفق جديد نصعد به أكثر وأكثر إلى مستوى مسئولياتنا . . ومع كل صعود تتسع دائرة الأفق وتبدأ أبعاد مسئوليات جديدة . .

مع تهنئة بالعام الجديد إلى كل مساهمة فى إثراء الحياة بالعلم والإيمان والجهاد . .

الرسول و بناء المستقبل *

فى المرحلة التى تمر بها أمتنا الآن ، ونعنى فيها ببناء المستقبل ، يحسن أن نتناول من سيرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كيف جمع فى نظراته الشاملة بين الماضى والحاضر والمستقبل ، وكيف رأى الحياة فى تدفقها المستمر . .

أولا — الماضى :

١ — فى هذه النظرة نرى الاعتراف بالجهد المبذول ، والتقرب إلى الله ، والإشادة به فى الصلاة والحياة . وقد علمنا نبينا فيما أنزل الله عليه من قرآن :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

(البقرة : ٢٨٥) .

ويعتبرهم القرآن الكريم أمة واحدة تمتد عبر الحياة ، فيقص

---

* نشرت بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٢ من ربيع الأول ١٣٩٤ هـ الموافق ٥ أبريل ١٩٧٤ م .

قصصهم فى سورة الأنبياء ، ويعرض جهادهم ، ثم يعقب ربنا على ذلك بقوله : « إنَّ هذه أُمَّتُكم أُمَّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبدون » (الأنبياء : ٩٢) . ويمدحهم فى حديثه ويضرب الأمثال لإخائهم فيقول : « أنا أولى الناس بابن مريم فى الدنيا والآخرة ، ليس بينى وبينه نبى . والأنبياء إخوة أبناء علاّت . أمهاتهم شتّى ودينهم واحد » (أخرجه الشيخان وأبوداود عن أبى هريرة . وأبناء العلاّت هم الإخوة لأب واحد وأمهات شتّى) .

فالإيمان بكل نبى ورسول جزء من الإيمان فى الإسلام لا يكمل إلاّ به .

٢ — ويحمل هذا الإيمان معنى عرفان الجميل لكل جهد كريم مؤمن ، ويؤكد أساس التواصل بين الأجيال على طريق العمل ، وأن كل فرد فى موقع عمله — مكانـًا وزمانـًا — إنما هو حلقة من سلسلة مستمرة يحمل الأمانة ممن سبقه ليعطيها من بعده « ولو دامت لغيرك لما وصلت إليك » .

٣ — ولا يقف الأمر عند مجرد عرفان الجميل ، أو تمجيد الماضى بصورة تحجب المراجعة ، وإنما لنا فى الماضى دائمًا عبرة وتجربة ، والله يقول : « لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبابِ ، ما كان حَدِيثاً يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (يوسف : ١١١) . الماضى إذن فى المنظور الإسلامى اعتراف بجميل ، وتعرّف على عبرة ، واستفادة من تجربة .

ثانياً ـ الحاضر :

وعلمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم أن نعنى بالحاضر والحياة التى نحياها بناء وإثراء .

١ ـ وهو يدعونا إلى أن نعيش حياتنا بأساس أخلاقى . وعندما سئلت السيدة عائشة عن أخلاق النبى ، صلى الله عليه وسلم ، جمعتها فى كلمة واحدة : « كان خلقه القرآن » ، فسلوكه هو الترجمة الحية الناطقة للقرآن الكريم . وإلى هذا يدعونا ربنا فى قوله : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » (الأحزاب : ٢١) .

٢ ـ هذا السلوك كان عصارة حيّة تسرى فى جوانب الحياة النبوية جميعًا وتشع منها إلى نفوس أصحابه لتنطلق من هذه مؤمنة عاملة منتجة . . وأبرز معالم هذا السلوك أنه كان أساسًا متكاملا يقيم جوانب الحياة جميعًا . . اقتصادية ، عسكرية ، اجتماعية ، سياسية ، على الصعيد المحلى والعالمى ، ولنأخذ نماذج لجوانب من هذا السلوك :

● هو يدعوهم إلى ذكر الله فى بيته : « يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » (الجمعة : ٩) .

● ويدعوهم إلى ذكر الله فى ميدان القتال : « يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (الأنفال : ٤٥) .

وبهذا كانوا يذكرون الله فى المحراب وميدان القتال . . وهكذا فعل أبناؤهم عند عبور القناة فى العاشر من رمضان ، فكان هتافهم التلقائى : « الله أكبر ، الله أكبر » .

٣ — ومع شمول السلوك فإنه يربط بين العقيدة والعمل دائمًا . . فالعمل ترجمة مؤمنة للعقيدة ، والعقيدة دافع إلى العمل ، مهما يكن صغيراً أو كبيراً فى مجالات الحياة كما يبدو من الأحاديث الشريفة الآتية :

● هو يبدأ من الكلمة : « الكلمة الطيبة صدقة » (رواه أحمد) .

● إلى حركة اليد : « مَنْ أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » (عن ابن عباس) .

● إلى حركة القدم : « من عاد مريضًا أو أخًا له فى الله تعالى ناداه مناد .. أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » (عن أبى هريرة) .

● إلى حفظ حق الجار : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » (عن عائشة) .

● إلى حب الخير والترفع عن تتبع عورات الناس : « لا يستر عبد عبداً فى الدنيا إلا ستره الله تعالى يوم القيامة » (عن عقبة بن عامر) ، وهذا بالطبع فيما لا يتعلق بحقوق العباد ومصالحهم .

● ونستطيع أن نوسع الدائرة حتى نصل بها إلى ذورة الصراع العسكرى كما فى الحديث الشريف : « ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس ؟ إن من خير الناس رجلا عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت . وإن من شر الناس رجلا يقرأ كتاب الله ولا يرعوى[1] بشيء منه » (عن أبى سعيد الخدرى) .

وفى حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع . ولا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » .

ويبدو من هذه الأحاديث — كنماذج — تكامل بناء المجتمع ، وأن العمل فى كل هذه الآفاق عبادة ما دام موجهاً إلى الله وصالح المجتمع ، وأن العلم دون عمل شر على صاحبه ، فلا بد فى المنطق الإسلامى من أن تكون الكلمة ولوداً ومثمرة .

---

(١) يرعوى : ينزجر .

ثالثاً — الرسول والمستقبل :

وكما رأينا عناية الرسول بالماضى والحاضر نرى عنايته بالمستقبل .

وما المستقبل ؟ إنه الحاضر الذى سيأتى . وما الحاضر ؟ إنه المستقبل الذى كان . وما الماضى ؟ إنه خزانة الحاضر والمستقبل .

والحياة فى تدفق مستمر ، ونحن فى رحلة دائمة إلى المستقبل ، وفى كل لحظة تنفتح أمامنا ومن حولنا آفاق جديدة . ومن هنا كان علينا أن نأخذ الموقف المتزن بين الماضى والحاضر والمستقبل ، وليس من المبالغة أن نقول مع القائلين : إن المستقبل هو تاريخ الغد . وإن اصطلحنا على أن التاريخ هو ما سبق لا غير .

ونبينا عليه الصلاة والسلام كان يخطط دائماً ، ولنأخذ نماذج .

١ — فى مكة بنى أصحابه على العقيدة الأصيلة والمحبة والإخاء ليكونوا قادرين على تحمل الأمانة ، ولتزداد قدراتهم مع اتساع آفاق المسئولية .

٢ — وعند ماعرض نفسه على القبائل ، وبدأت يثرب تستجيب له فى السنة العاشرة من البعث ، أمضى ثلاث سنوات فى تنظيم الهجرة وتوسيع مجالها وانتقال أصحابه من مكة إلى المدينة ، لتكون قاعدة ينطلق منها الإسلام .

٣ — وعندما هاجر كان أول ما قال لأصحابه : « أيها الناس قدموا لأنفسكم » (ابن هشام : ٢ — ١٤٦) ، ودعاهم إلى بذل ما يستطيعون

من أجل بناء المجتمع الجديد بقوله : « فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة » .

٤ — ونظم غزواته وسراياه وخطط لحروبه ومشكلاته الداخلية والخارجية وحارب وسالم ، وعندما جاء نصارى نجران أذن لهم بدخول مسجده والصلاة فيه وأعطاهم عهد أمان أكده الخلفاء من بعده . (زاد المعاد لابن القيم ٣/٧٩ — ٨٠ وفيه تفصيل لزيارة وفد نجران والأحكام المرتبطة بها) .

بعد حرب رمضان :

ونحن بعد رمضان علينا أن نأخذ العبرة من هذا الدرس النبوى . . عرفانًا بجميل من سبق ، واعتباراً بتجربة ، وتقييمًا لها ، وإثراء للحاضر ، وتخطيطًا وبناء للمستقبل المتكامل على أساس من العلم والإيمان .

وندعو الله أن يحفظ قائد مسيرتنا البطل المؤمن محمد أنور السادات ، ندعو الله أن يرعى جنودنا وأبناءنا بعينه التى لا تنام .

وأن يتقبل شهداءنا فى مستقر رحمته ، وأن يبارك أخوتنا ووحدتنا الوطنية من أجل استرداد أرضنا السليبة وقدسنا الغالى وحقوق شعب فلسطين والرقى بحياتنا . وتحية فى ذكرى المولد النبوى الشريف إلى قادة وشعوب العروبة والإسلام وكل محب للسلام من رسول علمنا أن السلام من أسماء الله الحسنى .

بكل الوفاء والعلم والإيمان*

قلنا : نعم

فى الحديث عن مجتمع العلم والإيمان ، كما صورته ورقة أكتوبر ، أود أن أقف أولا وقفة قصيرة عند الهندسة العامة لهذه الورقة . .

هناك أهداف رئيسية هى الأهداف العشرة التى نقرؤها فى خاتمة الورقة ، ويمكن أن نميز فيها بين قسمين رئيسيين ، قسم يتعلق ببناء المجتمع ، وقسم يتعلق ببناء الفرد . ويتكون كل قسم منهما من خمس نقاط أساسية . .

ما يتعلق ببناء المجتمع يشمل جوانب التنمية والانفتاح والتخطيط وخريطة المستقبل ووضع القطاع العام . وما يتعلق ببناء الإنسان أكد أولا على هذا الإنسان من حيث هو إنسان ، ثم انتقل إلى العلم وإلى التقدم الحضارى بشقيه فى مجتمع العلم والإيمان ، ثم بعد ذلك إلى الحرية وإلى الأمن .

هذه النقاط كلها نستطيع أن نجد لها ركائزها القوية من كتاب الله ومن سنة النبى عليه الصلاة والسلام . فالتنمية أساس فى الحياة ، والله

---

* نشرت بجريدة الأخبار فى عددها الصادر بتاريخ ٢٥ من ربيع الثانى ١٣٩٤ هـ الموافق ١٧ مايو ١٩٧٤ م .

يمن على أصحاب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بما وفر لهم فى المدينة من طيبات الحياة فقال : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (الأنفال : ٢٦) .

وبناء المستقبل والإعداد للمستقبل أساس فى الدين . . على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة . والحساب والإحصاء أساس فى ديننا ، وحساب الله تبارك وتعالى لنا يشمل الصغيرة والكبيرة فى ظل مغفرته ورحمته .

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » (الأنبياء : ٤٧) .

هذا مع سيادة حق الشعب على مقدراته الأساسية التى ينبغى أن يشتركوا فيها . . وفى حديث النبى عليه الصلاة والسلام : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والنار والكلأ » .

كما حذرنا ربنا من سيطرة رأس المال على الحكم فقال

« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . (البقرة : ١٨٨)

ونحن إذا ما عدنا إلى العهد النبوى وجدنا تكاملا واضحـًا فى بناء المجتمع سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا ، وانفتاحـًا على من حوله استطاع فى سرعة وفاعلية أن ينقل المجتمع الإسلامى إلى بؤرة التأثير العالمى وفى فترة وجيزة .

هدف أصيل :

إن الإنسان هو أول من خاطبه ربنا تبارك وتعالى فى القرآن الكريم فى قوله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » (العلق : ١) أريد أن نقف عند « اقرأ » لنراها أمراً موجهـًا من خالق السموات والأرض إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، إلى ممثل الإنسانية فى أعلى كمالاتها ، وأن تكون القراءة باسم الله ، وبذلك تكون القراءة هادفة لخير الناس أجمعين .

ودعانا ربنا إلى العلم ، وجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وجعل نبينا عليه الصلاة والسلام مقام مداد العلماء كدم الشهداء ؛ هؤلاء تسيل أعمارهم وحيواتهم من جروحهم ، وهؤلاء تسيل أعمارهم وحيواتهم من بين شقى القلم الذى أقسم به ربنا أول ما أقسم فى كتابه فى ثانى سور القرآن نزولا وذلك فى قوله تبارك وتعالى :

« نٓ وَالْقَلَمِ وما يَسْطُرُونَ » (القلم : ١) .

بناء الإنسان إذن إنما هو هدف أصيل فى ديننا ، ولقد رأينا كيف أمضى نبينا عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عامـًا فى مكة وسط الظلم . . وسط الضغط . . وسط الجبروت الجاثم من حوله ، وكان هدفه الكبير أن يربى هذه المجموعة المؤمنة التى استطاعت أن تحمل معه مسئولية الإسلام ، وأن تهاجر بدينها مرة إلى الحبشة ، ومرة أخرى إلى الحبشة ، ومرة إلى المدينة وهى تحمل إيمانها حيث تكون .

بين الأصالة والتجديد :

والتقدم الحضارى القائم على العلم والإيمان إنما يقوم على ركيزتين أساسيتين فى حياتنا ، فمصر أرض العلم والإيمان من قديم . . وهى تعبر عن علمها وإيمانها استمساكـًا بأصالتها وانفتاحـًا على ما حولها . . لا تنطوى عن تيارات العالم ولا تذوب فيها . . ومن قدرتها على الجمع بين الأصالة والتجديد استطاعت أن تقدم للإنسان هذا النموذج : أرض العلم والإيمان .

ولا بد هنا من أن نوفر الحرية والأمن : الحرية الاجتماعية والسياسية ، والاثنتان تتبادلان التفاعل فى نفس الوقت لا تزدهران إلا فى ظل الأمن ، ولنقرأ معـًا حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « من أصبح آمنـًا فى سربه معافى فى بدنه وعنده قوت يومه ، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

من أجل ذلك كله . . قال شعبنا لورقة أكتوبر – رمضان : « نعم » . . قالها بكل الوفاء والعلم والإيمان . . قالها بكل الحرية والإخاء ،

قالها متطلعًا إلى غد أفضل يسير فيه مع السادات على طريق المستقبل تعميراً وتحريراً مترجماً آماله إلى أعمال ، مردداً قول الله :

« رَبَّنا آتِنا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَدًا ».

(الكهف : ١٠)

فى ذكرى الإسراء والمعراج *

خطوات نحو القدس الشريف

تعود ذكرى الإسراء والمعراج فى عامنا هذا بعد حرب رمضان وعبور القناة وزحف الجيوش العربية فى مصر وسوريا ، وكلها خطوات ظافرة نحو القدس الشريف ، أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، وملتقى الأنبياء ، ومسرى المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ومع أن إسرائيل مستمرة فى عدوانها تخريبًا لآثار القدس ، وتغييراً لملامحه العربية الأصيلة ، فإن العالم العربى والإسلامى هذا العام أصبح أكثر وعيًا لخطورة الموقف ؛ وقد استطاع أن يترجم بعض آماله إلى مشروعات محددة :

١ ــ عروبة القدس :

فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الذى عقد فى كوالالمبور ـ عاصمة ماليزيا ــ فيما بين ٢١ و ٢٥ يونيو ١٩٧٤ اتخذ المؤتمر قراراً بإعطاء أولوية لمشروعات القدس فى صندوق التضامن الإسلامى ــ وهو

* نشرت بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٢٧ من رجب ١٣٩٤ هـ الموافق ١٧ أغسطس ١٩٧٤ م .

الصندوق الذى اعتمد المؤتمر قيامه فى تلك الدورة — وينص القرار على :

١ — دعم صمود أهل القدس وإبقائها عربية إسلامية ، وترميم المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمى والحرمين المحيطين بهما ، والمساجد والأبنية الأثرية والإسلامية التى تأثرت بحفريات إسرائيل حول المسجد الأقصى .

٢ — شراء الأراضى والبيوت المستهدفة للبيع وجعلها وقفًا على المسلمين .

٣ — تعمير الأحياء العربية وإقامة المشروعات الإنمائية والسكنية لأبناء القدس العرب على أراضى الأوقاف الإسلامية ووقف هذه المشروعات .

وقد ساهمت بعض الدول العربية مشكورة فى رصد اعتمادات يستطيع بها الصندوق أن يمارس عمله .

٢ — يوم المؤتمر الإسلامى :

ويأتى هذا الدعم المادى للحفاظ على عروبة القدس واستعادة ملامحها الأصيلة متواكبًا مع الجهد الحربى الذى نقترب به من المدينة المقدسة ، ومع قرار آخر اتخذه مؤتمر كوالالمبور فى اتخاذ يوم ٢٥ سبتمبر من كل عام مناسبة عالمية نحتفل فيها بذكرى قيام المؤتمر الإسلامى .

وقيام المؤتمر كان سببه المباشر حريق المسجد الأقصى فى يوم ٢١ أغسطس ١٩٦٩ ، هذا الحريق الذى امتدت منه جذوة إلى قلب كل عربى ومسلم وكل محب للسلام . بعد هذا الحريق تداعى ملوك

ورؤساء العالم الإسلامى إلى لقاء قمة فى الرباط بدأ يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٦٩ وحضره من مصر الرئيس أنور السادات (وكان وقتئذ نائباً لرئيس الجمهورية) وحضره جلالة الملك فيصل مع إخوانهم من الملوك والرؤساء . وأصدروا فى يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٦٩ بياناً أكدوا فيه وقوفهم صفاً إزاء المؤامرة الصهيونية ، ودعوا إلى اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية فى جدة ، وتتابعت اللقاءات تؤكد وجود المؤتمر الإسلامى وتوسع دائرة عمله . . والتقى الملوك والرؤساء مرة ثانية بعد حرب رمضان المجيدة فى لاهور . ما بين ٢٢ و ٢٤ فبراير ١٩٧٤ ، ليعطوا العمل الإسلامى العالمى دفعة جديدة نحو التحرير والسلام .

٣ ــ الوحدة الوطنية والعربية :

وارتبط هذا النشاط بدعم للعمل العربى يشترك فيه أبناء الأمة العربية من مسلمين ومسيحيين : ففى مؤتمر القمة الإسلامى الثانى بلاهور جاءت البرقيات مؤيدة عروبة القدس من الكنيسة القبطية بمصر ، واستعدادها لإرسال وفد إلى المؤتمر . . وارتفع صوت الكنيسة فى قاعة المؤتمر مؤيداً عروبة القدس مشيداً بالإخاء الأصيل بين أبناء الأمة العربية ، واتخذ المؤتمر قراراً يسجل فيه تقديره للدور الإيجابى الذى تقوم به كنائس دول المواجهة فى مصر والأردن وسوريا ولبنان على الصعيد المحلى والعالمى ، وما قامت به بعض الكنائس العالمية من تأييد الحق العربى .

وجاء هذا متابعة عالمية لجهود محلية كريمة رأيناها فى مصر عندما ساهم المسيحيون مع المسلمين فى الاحتجاج على حريق المسجد الأقصى ، وشهدت قاعة الشيخ محمد عبده بالأزهر الشريف نموذجاً من هذه اللقاءات .

٤ ــ البنك الإسلامى :

ويشهد الثالث والعشرون من شهر رجب هذا العام (١٢ أغسطس ١٩٧٤) توقيع ست وعشرين دولة إسلامية فى جدة على اتفاقية إنشاء بنك التنمية الإسلامى . ويبلغ رأس ماله مليارَىْ دينار إسلامى ، وتعادل نحو ٢٤٠٠ مليون دولار ، وتنص اتفاقية البنك على دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية لشعوب العالم الإسلامى . . ولا شك فى أن مشروعات عروبة القدس سيكون لها نصيبها الكبير من العناية والأولوية .

٥ ــ وللذكرى علينا حق . .

وأعود إلى ذكرى الإسراء والمعراج :

١ ــ لقد تحولت عندنا إلى عمل واضح المعالم . . إلى مشروعات نحافظ بها على عروبة القدس واستعادة الأراضى السليبة وحقوق شعب فلسطين . .

٢ ــ لقد كان الإسراء والمعراج رباطاً بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مروراً بالمدينة المنورة ، فليكن احتفالنا ربطاً بين أجزاء العالم

العربى والإسلامى من أجل سلام قائم على العدل .

٣ – لقد رأى فيها الرسول عليه السلام من آيات ربه الكبرى : رأى مشاهد توضح تربية الفرد على الإيمان والعمل ، وتربية الأسرة على العفة ، وإقامة المجتمع على الحق والعدل ، ومحاربة كل أنواع الاستغلال ، استغلال اليتيم والمحتاج والضعيف .

٤ – بذلك لم يكن المعراج بعداً عن الأرض وإنما كان ارتفاعاً بالحياة وعوناً على معاناتها ، وتحملا لمسئولية الرقى بها ، ذلك لأن مشاهد الإسراء والمعراج كانت وثيقة الصلة بالمجتمع . . بل كانت تصويراً لأبعاد المجتمع الجديد الذى لم يتحقق إلا بعد الهجرة فى المدينة المنورة .

٥ – من أجل ذلك جاء الإسراء والمعراج وسط جهاد الرسول . . قبله جهاد . . وبعده جهاد . . وما فيه من مشاهد أصبح مادة جهاد . لأن الإسراء والمعراج كان تشريفاً وتكليفاً . كان جزاء وكان مسئولية .

٦ – ولنتأمل – فى عمق – حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد » ، لنحس أن الصلاة معراج المؤمن : حين يجمع بين الله أكبر وسبحان ربى الأعلى : فى الأولى كل معانى القوة على صعاب الحياة وعقباتها . . هى نداء الصلاة ونداء المعركة . . والثانية تحمل كل معانى الخضوع لله القوى : خضوعاً تمتلىء به النفس قوة ، لتعود إلى الدنيا عاملة من أجل السلام . . خاتمة الصلاة بقولها : السلام عليكم ورحمة الله . . عسى أن تستطيع جهودنا قريباً أن تعيد السلام إلى أرض السلام .

عام بعد النصر*

كنت أراجع كتاب « عيد الغفران » الذى كتبه سبعة من الصحفيين الإسرائيليين . . ووقفت عند وصف المعارك الضارية . يقول فيه الكاتب : كان المصريون يلقون بأنفسهم على الدبابات الإسرائيلية . ويتعلقون بها ، ثم يموتون ، وهكذا بغير نهاية ، وفى لحظة من اللحظات شعرت أن ذلك سوف ينال من القوات الإسرائيلية ، فرحت أصرخ فى جهاز الاتصال وأقول : « إذا كانوا يريدون (أى قادة إسرائيل) أن يحاربوا فليجيئوا إلى هنا ، ولسوف يرون كيف نخوض الحرب » . . كانت المذبحة مروعة . ولكنى تصورت أن صياحى هذا وسط هذا الجحيم الذى يلقى فيه المصريون بأنفسهم على دباباتنا لكى تسحقهم قد يوقظ رجالنا الذين بدا أن الرعب قد أصابهم بالشلل . وقد غطيت تلال الرمال بطبقة حقيقية من اللحم البشرى إذْ كانت كل موجة تتم إبادتها تحل محلها موجة أخرى » . ويقول فى موقف آخر : « إن كل شىء قد اختلف فى هذه المرة » .

نعم إن كل شىء اختلف فى هذه المرة .

---

* نشرت بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ العاشر من رمضان ١٣٩٤ ﻫ الموافق ٢٦ سبتمبر ١٩٧٤ م .

وأمام هذه التضحيات الغالية النبيلة فى أول ذكرى بعد حرب رمضان المجيدة نرفع أكف الدعاء إلى ربنا أن يتقبل شهداءنا فى مستقر رحمته ، وأن يجزيهم عما بذلوا خير ما يجزى به عباده المؤمنين .

كل شىء قد اختلف فى هذه المرة . .

١ ـ ذلك أن قواتنا المسلحة قد استطاعت أولا أن تخترق حاجز الخوف من العدو وخطوطه وتنظيماته وأسلحته . وارتفعت كفاية التدريب عندها إلى مستوى مماثل للمعركة الحقيقية .

٢ ـ وعمق فى القلب معنى الاستشهاد والتضحية فاتصلت الحياة بالموت . . وأصبح الموت حياة فى جوار الله مصداقًا لقوله : «وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » (آل عمران ١٦٩ ـ ١٧١) .

٣ ـ وإذا كانت الحرب قد أصبحت استمراراً للتدريب . . والتدريب استمراراً للحرب ، والاستشهاد استمراراً للحياة . فإن هذا لا يحدث إلا بتوقيت دقيق والتزام الأوامر واستيعاب للأسلحة الحديثة تصبح بها كل حركة محسوبة زمنًا وقوة واتجاهًا وتأثيراً . .

وبهذا يتلاقى العلم والإيمان كأروع ما يكون التلاقى فى المعركة .

٤ – وفوق هذا تأتى من الله سكينة تنزل على قلوب المحاربين . . سكينة ما ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم إلا فى موضع التفضل والإكرام فى المواقف العصيبة . . نقرؤها فى قوله تعالى :

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » (الفتح : ٤) سكينة أنزلها على رسوله وهو فى الغار مهاجراً إلى الله بدينه « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا » . (التوبة : ٤٠)

٥ – وإن ذكريات النصر – وإن كانت تحدد منعطفاً تاريخياً وحضارياً جديداً – تلقى فى الوقت نفسه مسئوليات جساماً فى متابعة التحرير والتعمير نستمع فيه إلى نداءات سيناء والجولان وفلسطين والقدس العزيزة . . ونستمع إلى نداء أجيال سبقت على الطريق إلى ربها تقر عيونها فى جوار ربها بما تحقق من نصر . وأجيال تأتى من بعدنا تأمل منا أن نمهد لها الطريق إلى حياة أفضل . .

تحية فى أعياد النصر إلى قائد المسيرة* وإلى قواتنا المسلحة وإلى كل من ساهم فى النصر وأعان عليه .

حرب العلم والإيمان*

فى حرب رمضان – أكتوبر – المجيدة لم يتعرض سلاح إلى الحوار والجدل بقدر ما تعرضت الصواريخ المضادة للطائرات والمضادة للدبابات . ومع أن هذين السلاحين سبق استخدامهما فى معارك أخرى فإنهما – بشهادة الخبراء العسكريين – شدّا الانتباه فى معركتنا بصورة غير مسبوقة .

ولنحاول أن نصور لأنفسنا الموقف :

جندى مشاة يعبر القناة ويقتحم خط بارليف ويقف بصدره العارى أمام دبابة – هى قلعة من الحديد المتحرك – حتّى إذا اقتربت منه صوب إليها صاروخـًا ، وعليه بعد هذا – فوراً – أن يتابع تنفيذ مهامه وسط غابة الحديد الملتهب والرشاشات السريعة الطلقات ودوىّ الجنازير تحمل الموت والدمار .

القضية إذن ليست مجرد سلاح أمام سلاح ، ولكنها أساسـًا قضية محارب يصعد بإيمانه إلى هذا المستوى الرفيع من الفدائية واستيعاب السلاح الحديث والإيمان العميق بالله وبالهدف الذى يعمل من أجله .

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٨ من رمضان ١٣٩٤ هـ الموافق ٤ أكتوبر ١٩٧٤ م.

هذا المستوى ليس طفرة ولا حالة تعرو المحارب بعض الوقت ، ولكنه ثمرة تدريب شاق طويل تتوازن فيه القوة الجسمية مع العلمية مع الإيمان ، وتتكامل فيه تدريبات اللياقة البدنية مع الدراسة العلمية المتعمقة فى الأسلحة مع السجود لله فى محراب الصلاة ورفع الأيدى إليه بالدعاء .

(١)

ولك أن تطبق هذا على الأسلحة الأخرى فتسأل :

● ما الذى يدعو شبابنا من الطيارين إلى تسجيل هذه الأرقام القياسية فى الطلعات فتصل إلى سبع فى اليوم الواحد ، كما جاء فى خطاب الرئيس محمد أنور السادات مساء يوم ١٩٧٤/٩/٢٨ ؟

● ما الذى ربط بين قلوب المحاربين عند ما اخترقوا خط بارليف ، فكان كل منهم فداء لأخيه وغطاء له ومتابعاً لمسئولياته إذا استشهد ، فكأنه ينطق بلسان الشهيد ويتحرك بجسمه ويدافع بسلاحه ؟

● ما الذى جمع قلوب القادة على الكتمان العميق لأمر المعركة ، والتخطيط الطويل لها واختيار خطتها من بين عشرات البدائل المتاحة ، وترجمة هذا كله فى صمت ودأب ، وكيف تحملوا زوابع التشكيك وحروب الإذاعات والميكروفونات والقاعات المكيفة الهواء ؟ ! . . . فصبروا وصابروا ورابطوا فى ظل من تقوى الله وحسن رعاية أمره . . واستطاعوا أن يحولوا هذا كله إلى أوامر يعرف بها كل محارب ما عليه . . ومتى يقوم به وكيف يقوم به ؟ . .

● ثم فى كل موقع من مواقعهم ترى مسجداً أو مصلى . . وإذا ارتفع

صوت المؤذن جمعتهم صفوف الصلاة . . وترى الجباه الخاشعة لله فى المحراب هى الجباه الشامخة بالعزة والقوة فى المعركة .

(٣)

هذا الإيمان العميق بتعاونه مع العلم الحديث والتنظيم الدقيق قد استطاع أن يحقق على الجانب الآخر عدة نتائج .

١ – لقد كانت إسرائيل تنظر إلى نفسها كأنها الشعب المختار ، وأن المواهب التى عندهم لا تتوافر فى أى شعب آخر . . وأكثروا الحديث عن الفجوة العلمية والتكنولوجية ، وكيف ترجموها إلى جيش لا يقهر ، وأن لهم رسالة روحية فى العالم لا يحققها غيرهم . .

وجاءت حرب رمضان كالإعصار أو الزلزال يهز المجتمع الإسرائيلى من جذوره . .

٢ – وإسرائيل الآن تمر فى مرحلة انتقالية مضطربة الملامح ، وهناك تمزق لا ريب فيه بين تشدد وتمسك بالقديم إلى تشتت ومحاولات لقبول الواقع الجديد ، ولكنها مع هذا كله تبحث عن « بطل » يجمع صفوفها و « خطة » تنظم بها أمرها لمقابلة المتغيرات الجديدة .

(٤)

وهذا يفرض علينا بدوره مزيداً من العلم ومزيداً من الإيمان . . مزيداً من العمل للتحرير والتعمير ، مزيداً من اليقظة فلا ننتشى بالنصر

متذكرين دائماً قول الله تعالى :

« وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً » (النساء : ١٠٢) .

وإذا ما كانت حرب رمضان ستظل مجالا لدراسات على الصعيد المحلى والعالمى ، فإنها تحمل تطويراً مستمراً لأسلحة الحرب وسيزداد مجالها الفنى تعقيداً مع هذا التطور . وسيفرض علينا هذا مزيداً نامياً من الجهد العلمى ، يعيننا عليه ويهونه علينا مزيد من الإيمان بالله والثقة فى نصره والتواضع فى محاريب العلم والصلاة لتحقيق العزة فى ميادين التحرير والتعمير . .

ميلاد جديد . . وأمل وليد*

كان العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر ، منعطفاً تاريخياً حاسماً تغير به مسار الغزوة الصهيونية بعد ربع قرن من التوسع الإسرائيلي؛ وارتفع ذلك اليوم إلى القمم العالية من تاريخنا ، إلى « عين جالوت » ، التي تغير بها مسار الغزوة التتارية ، وإلى « حطين » التي تغير بها مسار الغزوة الصليبية .

وكما أن « عين جالوت» و « حطين » سبقتهما سلسلة من الهزائم والتوسع العدواني تركت آثارها الأليمة في كل قلب ، فإن العاشر من رمضان سبقته أحداث سنة ١٩٦٧ الدامية ، وكان الخامس من يونيو هزيمة بغير حرب ، وانسحاباً من المعركة قبل خوضها ، وتعاصر مولدها مع ختامها الأليم ، وكان الجيش أول ضحاياها ! .

لقد جاء العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر ، ميلاداً جديداً للوجود المصري والعربي والإسلامي ، وأملا وليداً لكل محب للسلام عامل له .

---

* نشرت بجريدة المساء في عددها الصادر بتاريخ ٢٤ من رمضان ١٣٩٤ هـ الموافق ١٠ أكتوبر ١٩٧٤ م .

هتاف علوى :

الله أكبر . . الله أكبر . .

ما الذى جمع القلوب على هذا الهتاف العلوى ؟ هتاف الصلاة ، هتاف العبور ، هتاف النصر . . هتاف نسمعه فى القرآن الكريم : « وكبره تكبيراً » (الإسراء : ١١١) .

هتافنا يوم العيد . . والنصر عيد . . الله أكبر على كل لسان . . تبعث فى القلوب الثقة فى الله . .

ذلك لأن العبور يحمل روح الأمر الإلهى والأمر النبوى بالجهاد ، ويحمل روح الصلاة بصدق التوجه إلى الله ، ويحمل روح الحج بالهجرة إلى الله . .

إنه الجهاد المقدس من أجل حقنا المغتصب ، وأرضنا السليبة . . وقدسنا الشريف الأسير . .

إنه التقدم خطوات واثقة على الطريق إلى المسجد الأقصى . .

إنه العبور إلى سيناء الحبيبة . .

الله أكبر تنطلق بها الحناجر معبرة عن إيمان القلب ، وعزمة اليد ووضوح الرؤية ، واستيعاب السلاح .

فيض من النصر :

وكما تتجدد الحياة بالفيضان والمطر الجديد ، جاءت هذه الحرب

فيضًا من النصر نبت به الأمل الجديد يغذيه العلم والإيمان . .

الحياة التى أرهقتها الهزيمة أخذت تستعيد شموخها بالاستعداد الكامل . . بالعلم . . بالإيمان . . بالسلاح الحديث . . بالتدريب الشاق . . بالإخاء والمحبة بين القادة والجنود إخوة السلاح والدم . .

وحدة وطنية تظل الجميع ، تزيدها ضغوط الأحداث تماسكًا ونقاء .

معدن شعب أصيل طالما تغلب على الصعاب ، وتخطى السدود . .

أبناء مصر الثورة :

على ضفاف القناة استعداد أثمر اقتحامًا ونصراً . . فى أعماق الأرض الطيبة استعداد صقل حماة الوطن من أبناء المزارع والمصانع . .

جنود جاءوا من ريفنا الطيب العريق . . فيهم نضرة الحقل وصلابة الصخر ، وكرم النيل . . فيهم ، قبل هذا وبعده ، عمق الإيمان بالحىّ الذى لا يموت . .

أبناء فتحت لهم مصر الثورة أبواب التعليم وزودتهم بالإيمان والعلم ، ليكونوا أكثر قدرة على مقابلة مشكلات العصر ، واسترداد أرضهم وحقهم ، وبناء مصر المستقبل . . مصر الحرة المؤمنة العاملة من أجل السلام العادل .

فدائية علمية :

الله أكبر . .

نداء المآذن إلى الصلاة . . ونداء القادة والجنود إلى المعركة . .

إنها الكلمة التى يلتقى فيها العلم بالإيمان ، والنصر بالاستشهاد ، والعبور بالتحرير ، والاقتحام بتحقيق الهدف . .

هذا هو المقاتل المصرى الذى شهد الأعداء أنه أكبر مفاجآت المعركة . . بروحه وقدرته : روح الإيمان . . وقدرة العلم . .

إنه التصوير الحىّ لمجتمع العلم والإيمان الجديد . .

هؤلاء الذين عبروا القناة على طول خط مواجهة قدره مائة وثمانون كيلو متراً فى وقت واحد . . وقبل غروب شمس يوم المعركة المجيد كان ثمانون ألفًا منهم قد عبروا القناة ، واستطاعوا أن يسيطروا على نقاط حصينة من خط بارليف .. الخط الذى تنكر له أصحابه بعد أن أغرقوه مدحًا ، وتنكر له حتى صاحب الاسم الذى أطلقوه عليه . . الخط الذى قالوا عنه من قبل إنه مقبرة الجيش المصرى . . عادوا فقالوا إنه مثل قطعة الجبن . . ثقوبه أكثر مما فيه من الجبن !

وكان جنودنا يد القدر التى كانت تدك النقاط الحصينة ، وتخترق المواقع والأسلاك الشائكة ، وتطهر حقول الألغام ، وتعيد الأمان والسلام إلى الأرض الطيبة بالعلم . . بالنظام . . بالإيمان . . بالفدائية العلمية .

قنطرة إلى المجد :

وارتفع العلم المصرى على شرق القناة . . تخفق مع خفقاته قلوبنا . .
وما أعز الثمن الذى بذل من أجل رفعه . . علم عزيز . . وبذل عزيز . .

من أجل وطن عزيز . .

وشهدت القنطرة ، كما شهد خط المواجهة ، معارك عنيفة من بيت إلى بيت . . من شارع إلى شارع . . استشهد فيها البشر ، كما دمر فيها العدو المنشآت . . لا يفرق بين مسجد وكنيسة . . ولا بين مدرسة ومستشفى . . ولا مسكن بين ومعسكر . . تخريب منه ، ورغبة صادقة فى التعمير منا . .

إنها أرضنا وعرضنا . . إنها القنطرة . . قنطرة إلى المجد . .

صاروخ وإيمان :

ما قالوه عن جيش إسرائيل وأنه اليد العليا . . واليد الطويلة ، واليد الثقيلة . . عاد إلى حجمه عندما بدأ الجندى المصرى فى استرداد حقه . . مقتحمًا أخطر المواقع المائية وأعتى الحصون . . متصديًا للدبابات ووحوش الحديد بصدره العارى . . صاروخه على كتفه ، وإيمانه فى قلبه .

وشهد قادة الأعداء أن أهم ما كشفت عنه حرب أكتوبر . . وأكبر مفاجآتها ، هو روح الجندى المصرى وقدرته . .

وكانت هذه أكبر صدمة لإسرائيل . . وهذا يفرض علينا مزيداً من العمل . . مزيداً من العلم والإيمان . . «وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً» (طه : ١١٤) . . «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ» (الفتح : ٤)

فالنصر فى المعارك ليس حقًّا مكتسبًا ، ولكنه جهاد لا ينقطع . .
وصدق الله العظيم : « وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً » (النساء : ١٠٢) . ولن نمكنهم من ذلك بعون الله وتأييد من المؤمنين . .

مواكب الأفراح فى السماء *

وسط أفراح النصر نذكر أفراح السماء بشهدائنا الفرحين .

نعم . . فإن الله جل وعلا يقول عنهم إنهم فرحون . ولنستعد وصف الله تعالى لهم فى سورة آل عمران : « وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » . (آل عمران : ١٦٩ — ١٧١) .

ولقد حق لشهدائنا أن يفرحوا . ولم لا وقد جمع الله سبحانه وتعالى لهم فى هذه الآية الكريمة عشرة أبواب من الكرامة ما جمعها لغيرهم فى كتابه العزيز .

أولا : أنهم أحياء ؛ وثانيا : عند ربهم ، وهذه خير جيرة وصحبة ؛ وثالثا : يرزقون ؛ ورابعا : فرحين بما آتاهم الله من فضله ؛

---

* نشرت بجريدة المساء فى عددها الصادر بتاريخ ٢٦ من رمضان ١٣٩٤ هـ الموافق ١٢ أكتوبر ١٩٧٤ م .

وخامسًا : يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ؛ وسادسًا : ألا خوف عليهم ؛ وسابعًا : ولا هم يحزنون ؛ وثامنًا : يستبشرون بنعمة من الله ؛ وتاسعًا : وفضل ؛ وختام أبواب الكرامة التى جمعها الله سبحانه للشهداء : أن الله لا يضيع أجر المؤمنين .

جزى الله الشدائد :

وجزى الله الشدائد كل خير ! لقد برهنت على أصالة المعدن العربى ، فلم نكن وحدنا فى المعركة . . كان معنا إخوتنا العرب . . وقفوا إلى جوارنا وفى أرض المعركة . امتزجت دماؤهم بدمائنا . . إخاء على مستوى الملوك والرؤساء . . إخاء على مستوى القيادة . . إخاء على مستوى الضباط والجنود .

لقد جمعتنا الشدة والمحنة على قلب رجل واحد مصداقًا لتوجيه الله تعالى : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » .

صفوف صلاة وقتال :

ووسط مواكب أفراح نصرنا فى الأرض ، ومواكب أفراح شهدائنا فى السماء . . نعيش بوجداننا وكياننا مع مقاتلينا ، جند الله فى سيناء

هناك أيد صلبة قابضة على السلاح وقلوب مفعمة بالإيمان معلقة بالله .

فى كل مكان فى الجبهة نجد المسجد والمصلى . .

مساجد ترتبط بمساجدنا الثلاثة الكبرى : المسجد الحرام رمز الوحدة والتوحيد ، ومسجد المدينة رمز قاعدة الإسلام وبناء المجتمع على نور الوحى والعلم ، والمسجد الأقصى رمز الإخاء العالمى والسلام القائم على العدل حيث أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومَسْرَى المصطفى وملتقى الأنبياء ، عليهم من الله جميعاً صلاة وسلام . .

جنود يعيشون فى المحراب والميدان . . صفوف صلاة بين ربهم فى صفوف قتال من أجل عقيدتهم ووطنهم وأرضهم المغتصبة .

فمن أرض الكنانة تحية إلى كل من وقف إلى جوار حقنا . . إلى كل من قدم لنا محارباً أو سلاحاً أو دعماً أو وقوداً للمعركة . . إلى كل من عاون على اقترابنا من المسجد الأقصى بداية معراج المصطفى إلى السماء .

فمن أجل المسجد الأقصى وما يمثله من إخاء إنسانى ، ومن أجل القدس الشريف مهد السلام ، ومن أجل حقوق شعب فلسطين ، ومن أجل أرضنا السليبة خضنا ونخوض المعركة . .

إننا نؤمن بالسلام العادل . هو الهدف وإن خضنا من أجله الحرب نؤمن بالسلام : « وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » (الأنفال : ٦١) .

حريق صامت جديد :

هذا المسجد الذى أحرقته إسرائيل ظلماً وعلواً وبغياً فى الأرض .. أحرقته وكأنها تظن أنها تحرق معه كل ما يمثل من قيم . .

وإسرائيل تحاربنا على جبهات القتال ، كما تحاربنا على الجبهات الحضارية . . تحارب الحاضر كما تحارب الماضى والمستقبل . .

وما زالت تصر على عدوانها ، وهى الآن تحاول الإحاطة بالقدس الشريف والمسجد الأقصى ، وامتدت حفائرها تحته . . ما ظهر منه تحرقه ، وما خفى منه تحفر تحته . . ذلك لتغيير وجه المدينة المقدسة ، ضاربة بكل قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن عرض الحائط ؛ وقد استطاعت أخيراً الاستيلاء على كثير من الأوقاف الإسلامية هناك ، والمسجد الآن مهدد بالسقوط . . إنه حريق صامت جديد .

وهذا العدوان لم يقتصر على المسجد الأقصى وإنما امتد إلى كنيسة القيامة ، وإلى الحرم الإبراهيمى فى الخليل ، تدنيساً لهذه المقدسات ، وتغييراً لمعالمها ، وسرقة لما فيها من تراث ، وحفراً تحتها . .

وما صنعته فى المسجد الأقصى ، صنعته هنا فى مساجدنا وكنائسنا . قنابل طائشة كأنها الثور فى مصنع الخزف . . مساجد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .. كنائس بنيت للعبادة والتعرف إلى الله . . كل أولئك حصدته القذائف الطائشة . . ويقف المسجد شهيداً وعلى حوائطه فجوات القذائف كأنها أوسمة الصمود تحيي بطولة شعب مؤمن

يصاب وينزف الدم دون أن يحنى الجبين أو يركع فى أرض المعركة . .

فوراء المسجد مساجد ، ووراء الكنيسة كنائس . . فهذا شعب عرف الإيمان من قديم . . يمدّ معركته بالعلم والإيمان . . بالنظام والعمل . . بالكفاية والعدل .

مصانع الإيمان :

هذه مساجدنا ، مصانع الإيمان ، تتعاون مع ميادين التدريب والمدارس والمصانع والحقول على تخريج الجيل الجديد من شبابنا المؤمن .

أمة عرفت ، من قديم ، الوحدة والتوحيد . . عرفت وحدتها الوطنية فى إخاء كريم كان ، وما زال ، نموذجًا كريمًا .

إيمان وعلم يتمثلان فى القيادة ، كما يتمثلان فى القاعدة .. نراهما فى خشوع قائدنا المؤمن محمد أنور السادات بين يد ربه يقف بملابس الميدان فى صف الصلاة ، ويحمل روح المسجد وهو فى ميدان القتال . .

لقد هدانا ربنا سبلنا فعرفنا طريق العلم والإيمان ، وهدانا سبلنا فعرفنا طريق النصر . . وهدانا سبلنا فعرفنا طريق التحرير والتعمير .

وبناء المستقبل له مسئوليات لا تقل ضخامة عن مسئوليات التحرير والمحافظة على الأرض السليبة بعد تحريرها . . مسئولية نحملها بكل القوة واليقظة . .

وبنظرة مؤمنة واثقة فى الله وتأييده ، وفى الشعب والتفافه حول قيادته ووحدته الوطنية والعربية ، وتعاونه على الصعيد الإسلامى ومع كل محب للسلام .

بهذه النظرة المؤمنة نتطلع إلى المستقبل وكلنا أمـــل . .

«وما النصرُ إلاَّ مِن عِندِ اللهِ» (آل عمران : ١٢٦) .

رسالة من شهيد فى يوم عيد*

أبى . . .

ما زلت أذكر كيف كنت تجمعنا فى الصلاة ، وبخاصة فى رمضان ، ومن ورائك إخوتى ثم أمى وأخواتى . وكنت تحرص بعد الصلاة على أن تشرح لنا ما تلوته من قرآن . وتعودنا أن تكون صلاتنا معك مدرسة صغيرة مستمرة لحفظ القرآن ودراسته وتطبيق ما نقرأ فى حياتنا اليومية . وكنت لنا — بحق — قرآنًا حيًّا ينطق بلسان ويسير على قدمين .

وعلمتنى حب مصر . . مصر النيل والحضارة . . مصر العروبة والإسلام والوحدة الوطنية . . مصر العلم والإيمان . . مصر المسجد والحقل والمصنع . .

وكنت تشير إلى مآذن القاهرة فى جولاتنا وتقول : هذه أصابع الإيمان . . يرفع كل مسجد أصبعه موحداً ربه . .

---

* نشرت بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ أول شوال ١٣٩٤ﻫ الموافق ١٦ أكتوبر ١٩٧٤ م .

١ ـ قبل المعركة :

وبعد هزيمة يونيو – هزيمة بغير حرب – كنت تكثر من قراءة آيات الجهاد والصبر فى صلاتك . وما زال صوتك يرن فى أذنى بقول الله تعالى : « يا أَيها الذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطُوا واتقوا اللهَ لعلكم تُفلحون » . (آل عمران : ٢٠٠) .

وكنت تكرر قولك ناظراً لنا : أسلمناكم مصر بحدودها فأسلموها إلى أولادكم بالحدود نفسها . . وعليكم أن تستعيدوا ما اغتصبه العدو الإسرائيلى . وسيروا بوطنكم وارفعوه إلى مستوى العصر على هدى من الإيمان والعلم والعمل والتخطيط الطويل .

وأتممت دراستى وانتظمت فى صفوف المحاربين . وتعودت أن أزورك من وقت إلى آخر . وكنت أحس أنك تعيش المعركة بكل وجودك . لا تسألنى عن أمر تحس أنه من أسرارى . وإنما تبتسم قائلا : أصبحت الآن ولك دائرتك وأسرارك العسكرية . . احرص عليها حرصك على إيمانك . ولى منك حب التضحية والإخلاص فى العمل . والله يرعاك ويرعى زملاءك .

وكنت أسألك : ما يجد الشهيد من مس القتل ؟

فتقول : لقد أجاب النبى عليه الصلاة والسلام عن أسئلتك فقال فى حديث شريف عن أبى هريرة : « ما يجد الشهيد من مس القتل

إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة » .

وتبتسم قائلا : مع الشهيد يتحول انفجار القنبلة وطعنة السيف وطلقات المدافع إلى « مس القرصة » ولا يحس بهذا إلا الشهيد

صدق رسول الله .

وأسألك : وماذا عن حساب القبر ؟

فتجيب بحديث الرسول (عليه الصلاة والسلام) عندما سئل عن ذلك فكان جوابه : « كفاه ببارقة السيوف على رأسه فتنة » (أخرجه النسائى) .

وأسألك : وماذا بعد ؟

فتبتسم وتتلو علىّ حديثًا آخر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أنس رضى الله عنه : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ، وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد . ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » .

٢ ــ حرب رمضان :

وصدر الأمر بالعبور الكبير على جبهة طولها مائة وثمانون كيلو متراً .

وتحركنا . .

كنا روحًا واحدة فى أجساد كثيرة . . روح مصر المؤمنة . . تحمل أمانة سبعين قرنًا من الحضارة المتصلة .

اتجاه واحد سرنا فيه . . نحو الشرق . . نحو النور . .

أرض تركزت عليها أعيننا . . هى سيناء الحبيبة . .

أرض رأيناها بنور القلب .. فلسطين والجولان والقدس الشريف ..

أحسست عند العبور أننا جسم واحد كبير له آلاف الرءوس والأيدى والأقدام وينطلق بكلمة واحدة . . الله أكبر ، الله أكبر . .

نعم . . لقد احمرت المياه بالدماء . . احمرت أرض سيناء . . بالدماء . . تمزقت أجسام . . تناثرت أشلاء . . صعدت أرواح غالية إلى بارئها . . وكل هذا ونحن نعبر ونحارب . . وصدق رسول الله : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة » . .

القذائف . . الانفجار . . هدير المدافع . . وحوش الحديد والنار كأنها رذاذ ماء يتطاير حول سباحين مهرة . . وصدق رسول الله . .

ووضعنا أقدامنا على أرض سيناء الغالية . . ورفرف علمنا الغالى . .

والمعركة تدور . . وكل شىء فيها تسبيح . . للمدافع تسبيح . . للقذائف تسبيح . . « وَإِن مِّنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » (الإسراء : ٤٤) .

واقتحمنا خط بارليف . . ها نحن أولاء مع الأعداء وجهًا لوجه . . أخيراً بعد ربع قرن تلاقينا وجهًا لوجه . . وسلاحًا لسلاح .

كنا شخصًا واحداً له أسماء شتى . . أنا . . هو . . هم . . الحى . . الشهيد . . الجريح . . الكل فى واحد . . انتفاضة عملاق يمتد مائة وثمانين كيلو متراً ، ومن ورائه مدد من كل فلاح وعامل

ومواطن فى عمق الأرض الطيبة ، ومن حوله إخوته العرب والمسلمون وكل محب للسلام . .

الله أكبر . . الله أكبر ، هتافنا جميعاً مسلمين ومسيحيين . . التحام كامل بين القيادة والقاعدة . . بين الجندى والضابط .

وتابعنا التحرك نحو أهدافنا . . البعض يتساقط والجسم الكبير يتحرك . . ضحايا . . والجسم الكبير يتحرك . . نقتحم السواتر نندفع نحو النقاط الحصينة فى خط بارليف اندفاعة الفيضان الغاضب . . نحرر أرضنا شبراً بشبر وذراعاً بذراع . . وما زلنا على الطريق . .

٣ ــ بعد المعركة :

وانتصرنا يا أبى . .

الجسم حىّ والبعض شهيد . . من الشهيد ؟ كلنا أبناؤك . بعضنا هنا والبعض هناك . . ولكن الجسم المصرى حى . .

وفى السماء أفراح . . نعم أفراح .

ولكن الفراق له حزنه وألمه . حتى عين الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) عرفت الدموع طريقها إليها . . حتى قلبه الكبير عرف الحزن النبيل . .

فنحن بشر يا أبتاه . بشر بأحزاننا وأفراحنا ، بلقائنا وفراقنا . . ولكنا بشر مؤمنون . . على ربنا متوكلون . . وبقضائه مسلمون . .

أعلم حزنك وحزن أمى وأخواتى .

ولكن يا أبى : هل هناك فراق للدنيا أكرم من جوار الله ؟ وهل هناك ثواب أكرم من جوار الله ؟ وهل هناك ثواب أعلى من جنة عرضها السموات والأرض ؟

وهل هناك طريق أشرف من استرداد الأرض المغتصبة والقدس الشريف . .

هنا . . نحن فى رفقة الأنبياء والصديقين والصالحين . . وحسن أولئك رفيقـًا .

أبى . . أعلم أنكم تذكروننا فى هذا اليوم . . وتضعون على قبورنا الزهور . . زهور على زهور . . وقد أثمرت زهوركم نصراً .

أتعرف أمنيتنا الكبرى ؟ أن نعود إليكم لنقاتل العدو الإسرائيلى من جديد ونلقى ربنا شهداء . . كل أملنا أن نتابع رحلة الاستشهاد مرات ومرات لاستخلاص الأرض الغالية وحماية ديننا ودنيانا . .

بيدى من وراء حجب الغيب أشدّ على يدك . . وعلى وجهى ابتسامة من يحيا مع الأنبياء ، فمن أجل هذا الهدف النبيل أعددتنا وأعددنا أنفسنا . .

وعليك وعلى قائدنا وأمتنا وجيشنا وأسرتى الكبيرة والأهل تحية . وكل عام وأنتم جميعـًا بخير .

رجال يصنعون العيد بالحب*

الآن وبعد أن ودعنا رمضان ، وأمضينا شهراً فى حديقة القرآن ، نصاحبه فى صلاتنا وخلواتنا ولقاءاتنا . . وسعدنا معًا بشهر النصر ، وبكل ما أفاض الله على وطننا من خير حملته إلينا معركة رمضان المجيدة . .

الآن . . بعد هذا كله . . نقف عند آيات من القرآن تتعلق بجند الله وتربيتهم بين المحراب والميدان . .

عندما تحدث القرآن عن بيوت الله ذكر « الرجال » فى موضعين .

وعندما تحدث القرآن عن ميادين القتال ذكر « الرجال » ؛ فلنعش مع هذه الآيات لنرى جانبًا من توجيه الله لنا فيها .

يقول تعالى : « لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ . . فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » (التوبة : ١٠٨) .

وكانت المقارنة هنا بين مسجدين : مسجد بناه المنافقون ضراراً وكفراً وتفريقًا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله وستروا أهواءهم

---

* نشر بجريدة الأخبار فى عددها الصادر بتاريخ ٣ من شوال ١٣٩٤ الموافق ١٨ من أكتوبر ١٩٧٤ م .

بقولهم : إنما اتخذناه للضعفاء والمرضى فى الليلة الشاتية ! !

ومسجد قباء الذى بناه المؤمنون أول ما بنوا عندما اقترب الرسول من المدينة المنورة ، وبين القرآن أنه مسجد تقوى ، وأن أهله أهل تقوى من أول يوم . . ووصف هؤلاء الرجال بأنهم يحبون أن يتطهروا . . وعقب على هذا بحب الله لهم فى قوله : « والله يحب المطهرين » .

كان هذا المسجد حبيبا إلى قلب الرسول عليه الصلاة والسلام . يقصده من وقت لآخر للصلاة .

ولنقف عند قوله : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » ، لنفهم التطهر بمعناه الواسع ؛ وضوء المادة والروح . . تطهير القول والعمل . المدخل النظيف لأى عمل .

وعمار بيت الله يحبون أن يتطهروا . . ما يقومون به من تطهير حبيب إلى قلوبهم ، والأمر ليس عندهم مجرد تنفيذ ، ولكنه تنفيذ محبوب .

كله . . عن حب :

ولنربط بين هذا وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

فما جزاء الذين يحبون أن يتطهروا ؟

إنه الجزاء الأوفى من الله : « والله يحب المطهرين » .

حب منهم للطهارة . . وحب من الله للأطهار .

ولنحاول أن نقوم ببعض التطبيقات على تطهير القول والعمل .

بدءوا من نظافة الحواس ، إلى نظافة المنزل ، إلى نظافة الطريق والمجتمع . . إلى نظافة الأداء لأى عمل من الأعمال بأن يكون على المستوى الأخلاقى ومستوى الإتقان اللازم له ، بتحديد نسبة مئوية مرتفعة من معدل الأداء ، وأن يكون هذا كله عن حب .

إنك إذا توسعت فى ذلك وجدت حبًّا للأسرة ، وحبًّا للوطن . وحبًّا للقيم العليا التى يعيش بها أى مجتمع ناجح .

التجارة . . لا تلهيهم :

ولننتقل الآن إلى الآية الثانية التى ذكرت الرجال .

هى تذكرهم بأن قلوبهم معلقة بالمساجد .

ولنقرأ الآية معًا . . يقول الله تعالى : « فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (النور : ٣٦ – ٣٨) ، ويصف الله بيوته بأنها رفعت بإذن من الله .

إنها على صلة وثيقة بالمسجد الأول . . «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ» (آل عمران : ٩٦) .

بيوت بنيت من بذور المسجد الأول وتحمل روحه . . روح التوحيد والإخلاص : «وما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ» (البيّنة : ٥) .

هؤلاء الرجال قلوبهم معلقة بالمساجد . . بعد أن رأيناهم من قبل متطهرين يحبون الله ويحبهم الله .

توازن بين المسئوليات :

وواضح من الآية أنهم قوم أهل نجاح فى حياتهم : «لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ» ولكن اشتغالهم بالتجارة والبيع لا يصرفهم عن ذكر الله وعن التردد على بيته بالغدوّ والآصال وعن إقامة الصلاة لأوقاتها . وهم حين يجنون ثمار هذه التجارة يتصرفون فيها بما يرضى الله فهم يقدمون زكاتها طيبة بذلك نفوسهم .

وإن تقلبهم بين دورهم ومتاجرهم ومساجدهم واحتفاظهم بموقف

متزن بين كل هذه المسئوليات يحفظهم فى يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، ويجزيهم ربهم فيه بأفضل ما عملوا ، ويزيدهم من فضله . .

وإن الدقة الدقيقة فى محاسبة أنفسهم وفى تنظيم أعمالهم يقابلها من الله فيض من النعمة تراه فى قوله تعالى : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

الصدق . . وتغير الأيام :

وترى هؤلاء الرجال مرة أخرى فى أعز المواقف التى نحب أن نرى فيها الرجال . . فى ميادين القتال .

وأنت ترى أننا انتقلنا من التطهير إلى العبادة وربط المجتمع بالحياة إلى ذروة سنام الأمر وهو الجهاد فى سبيل الله .

ولنقرأ معـًا وصف القرآن لهم : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً. لِيجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » . (الأحزاب : ٢٣ – ٢٤) .

فهم أولا مجموعة مختارة من المؤمنين . . مجموعة رجال صادقة فيما عاهدت ربها عليه . وإنها لتستمر على هذا الصدق وهى ترى أمامها

مصرع الشهداء وموت الأصدقاء وتغير الأيام . . ويؤكد ربنا جل وعلا ثبات معايير الرجولة فيها وأصالتها بقوله : « وما بدلوا تبديلا » .

فإذا ذكرنا أن هذه الآيات جاءت بعد أن وضع أمامهم ربنا النموذج الأعلى للإنسانية : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعله الأسوة الحسنة ، وعرض لنا عرضًا حيًّا ثباتهم فى مواضع الردع ، استطعنا أن ندرك بعض أبعاد هذه النماذج التى تربت فى الجو المحمدى والتى نحاول أن نهتدى بها .

ولنقرأ معًا الآيات التى وردت فى هذا المقام :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمِنْ كانَ يَرْجُواللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً » (الأحزاب : ٢١ — ٢٢) .

تكاملت بين أيدينا معايير الرجولة كما يصورها الإسلام :

طهارة فى القول والعمل ، طهارة لبيوت الله بالصلاة ، وربط بين أفراد المجتمع بالزكاة فى ظل من محبة الله وخشيته . . عمارة لميادين القتال ببطولات واضحة الملامح من رجال صادقين . . ما بدلوا تبديلا .

تحية . . لصناع العيد :

ونعود إلى يوم العيد . .

ما الذى جعله عيداً ؟

لقد صنعه رجال يحبون أن يتطهروا . . رجال عمروا المحاريب بالعبادة ، وميادين القتال بالبطولة .

الله أكبر . . كانت فوق المآذن . . وهتاف الأبطال يوم العبور الكبير . .

وإلى صناع النصر تحية . . تحية لمن قضى نحبه . . تحية لمن ينتظر . .

وتحية إلى قائد النصر . . وقواتنا المسلحة . .

وإلى أمتنا المؤمنة بسلام قائم على العدل .

وإلى أرض العروبة والإسلام ولكل محب للسلام .

تحية السلام من رب علمنا أن السلام من أسمائه الحسنى .

وكل عام وأنتم بخير .

لا فراق بين الحياة والإيمان*

قضية العلاقة بين الدين والشباب عالمية ، ولعلها أن تكون عندنا أيسر مما يقابله رجال الدين فى الغرب ، وإن أدى هذا التحدى عندهم إلى آفاق من تطوير العمل الدينى يحسن أن نعرض لجوانب منها .

وأذكر فى المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى الذى عقد فى قرطبة بين العاشر والخامس عشر من سبتمبر سنة ١٩٧٤ أن أثير هذا الموضوع ، وتحدث فيه الشباب من رجال الدين الكاثوليك فى صراحة ووضوح .

واسترعى انتباه بعضنا الملابس التى يرتدونها . كانت الملابس عادية لا يميزها إلا ياقة مرتفعة مقدمتها بيضاء تحل محل رباط العنق وقميص مغلق من نوع قماش البدلة . ويمكن وقت الحر أو فى الرحلات خلع الجاكتة ويبقى الرجل بالقميص المغلق والبنطلون قادراً على الحركة السريعة . هكذا فعلوا عندما كنا فى رحلات زيارة لمدينة الزهراء القريبة من قرطبة .

ودار الحديث بينى وبين مطران كاثوليكى يعيش فى الجزائر حول هذا الزى ، وكان من قوله : إننا علينا أن نرافق شبابنا فى رحلاتهم . . وأن نصحبهم فى ملاعب الرياضة ، وأن نشاركهم فيها . علينا أن نكون لهم أصدقاء . كان نحيف الجسم ، رياضى التكوين ، طلق الوجه . .

---

* نشرت بجريدة الأخبار فى عددها الصادر بتاريخ ١٣ من رمضان ١٣٩٤ (٢٩ سبتمبر ١٩٧٤) .

ولقد تخرج فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ويتكلم اللغة العربية بأكثر من لهجة . وعند الحديث عن الدين والشباب كانت خطوط الحوار الرئيسية فى المتحدثين الكاثوليك أنهم يقابلون المشكلات الآتية :

● وجوب المرونة فى عرض قضايا الدين ؛ ويقصدون مرونة العرض نفسه لا مرونة القواعد واتخاذ أساليب حديثة تعين على تقريب الحقيقة الدينية إلى الشباب . وكان من قولهم : « إن الإيمان إذا تحجر بعد عن الحياة » .

● الابتعاد عن أسلوب التلقين فى الدين والمناداة بأن يكون العلماء أصدقاء للشباب فى البحث عن حقيقة الدين . . ووصل الأمر بهم إلى القول بأن حقائق الدين إذا أصبحت حكراً لطائفة أصيب الدين بحالة مرضية . . لذلك يجب أن يكون لنا حضور فى أعماق ثقافتنا المعاصرة . . وكل فرد ينبغى أن يكون له « حضور » فى مجتمعه وفى إيمانه .

● ونادوا بما سموه « منع الطلاق بين الحياة والإيمان » . . ونادوا بتخطى ما أطلقوا عليه إيمان السلطات إلى إيمان المشاركة ، وفتح حوار دينى مستمر مع الشباب يبحث خلاله عن دعم الإيمان ، ويتغلب مع الشباب على المحنة التى يقابلها .

● وارتفعت درجة حرارة الحوار إلى قضايا الترابط بين قوى المجتمع . . وكيف وقف بعض رجال الدين فى بعض العصور والأقطار ضد مصالح القواعد الشعبية — والأمثلة على ذلك كثيرة فى أوربا — ونادى الفكر الدينى الجديد عندهم بتحالف بين الدين ومصالح القواعد الشعبية . .

أذكر هذه كمجرد نماذج لما يموج ويمور به الفكر الدينى فى عالم

الغرب . . وكيف يحاولون الاستفادة من منجزات العلم ومعطياته لدعم الإيمان . . وهناك مجالات واسعة فى علم الجيولوجيا والنبات والحيوان والحشرات والفلك . . تؤكد ما ذهب إليه شاعرنا العربى :

وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

دون اقتصار على البراهين العقلية التقليدية – مع الاحترام الكامل لها – وهم يبذلون الجهد ليجعلوا العلم فى خدمة الإيمان ، وليكون الإيمان دافعـًا إلى العلم ، وليكونا معـًا من أجل إنسان أفضل . .

الموضوع مفتوح للحوار وأرجو أن تسنح فرص أوسع لعرض الاتجاهات والتيارات الدينية هناك . . فنحن لا نعيش فى عالم مغلق أو منعزل ، وإنما هناك تفاعلات بين هذه التيارات فى الشرق والغرب تزداد قوتها ، مع فتح أبواب جديدة من الحوار واللقاءات .

والموضوع الذى يستوقف النظر أكثر من غيره : هو أسلوب المشاركة فى الوصول إلى حقائق الدين والربط الوثيق بينه وبين قضايا الجيل المعاصر ، وأن يكون للدين حضور حقيقى فى نفس الفرد ، وفى المجتمع الذى نعيش فيه . . هذا الموضوع يمكن أن يكون مدخلا لتطوير البرامج الدراسية ، لتستطيع أن تربط بين حقائق الدين ، فلا يقتصر الدين – عمليـًا – على دروس محدودة فى جدول الدراسة ، وإنما تقود المدرسة بكل علومها إلى تأكيد الإيمان بالله تعالى .

وإذا كانت الاحتفالات الدينية تعم أرجاء وطننا هذه الأيام فى ذكريات العاشر من رمضان مؤكدة دور الإيمان والعلم فيما حققه جيشنا

وشعبنا من انتصارات، فإنا لنرجو أن تكون هذه الذكرى عونًا لنا دائمًا على توثيق الصلة بين الكلمة والعمل والدين والحياة، ويومها نكون قد حققنا لأنفسنا المزيد من خير الدنيا والآخرة معًا، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

خطاب مفتوح عن العبور الأخلاقى

ابنتى العزيزة :

أكتب إليك هذا الخطاب المفتوح . . من موقع الأبوة ومسئوليتها . وأود أن أسجل فيه أمرين :

الأول : ما يأتينى من تقدير لعملك وجهود زميلاتك فى حسن الأداء .

الثانى : ما حدثنى فيه بعض الذين يحبون لنا جميعاً الخير من أن بعض زميلاتك فى الوزارة — وعددهن محدود — لا يلتزمن بزى يستجيب لما ندعو إليه من اتباع لأوامر ديننا ما استطعن إلى ذلك سبيلا . .

حوار :

وعند هذه النقطة أود أن أقف قليلا . . وأدير معك حوارا يعقبه اقتراح أود أن أعرف رأيك فيه .

قد تقولين لى : إن الزى أمر شخصى . ولا فرق أن تعمل إحدانا فى وزارة الأوقاف أو فى أى وزارة أخرى ، وان الزى حرية لا دخل لأحد فيها . .

وسأقول لك ما عندى فى هذه الأمور .

هل الزى أمر شخصى ؟

إن الزى من ناحية شخصى ومن ناحية اجتماعى .. . إنه تعبير . ألا ترين أننا اصطلحنا فى أفراحنا على أن تلبس العروس ثوباً أبيض، وفى أحزاننا على أن نرتدى السواد . . فهل هذا أمر شخصى ؟

وقد ترتدى غير العروس فى حفل الزفاف ثوبا أسود . . ولكن العروس لا ! !

من هذا المثال ونظائره ترين أن فى الثياب تعبيراً اجتماعياًّ . . إنها وسيلة للتفاهم كالكلمة . . وسيلة قد تصيب وقد تخطئ .

ومع أن بعض زميلاتك يقلن : إن ثيابنا أمر شخصى وتستطيع إحدانا أن تجعل طول الثوب كما تحب . . لكنها فى قرارة نفسها تحس أن هناك « حداًّ » ينبغى أن تقف عنده . ولا تستطيع مهما كان رأيها فى حريتها الشخصية أن تتخطاه . هذا هو « الحد النفسى » الذى يحدد لك ولزميلاتك العلاقة بين الجزء المستور والمكشوف من الجسم . وهو حد يختلف من زميلة إلى زميلة ، وتدخل فى تكوينه عوامل النشأة وقوة الشخصية والالتزام الدينى .

الزى والحرية :

وإذا ما قال بعض زميلاتك بأن الزى شخصى وأنه أمر حرية ، فإن هذا يدعونى إلى مناقشة أمر هذه الحرية ! . . .

ولنحاول أن نتفق على مفهومها . .

ستقولين فى سرعة : أن أفعل ما أشاء . .

ولكن ، ما حقيقة هذه المشيئة وحقيقة هذه الحرية ؟

أى حرية فى أن تتبع فتاة نشأت فى القاهرة الأصيلة العريقة . . القاهرة المسلمة المؤمنة . . أن تتبع الخط الذى يرسمه مصمم أزياء غريب عن ديارنا وتقاليدنا وأذواقنا . يضع ما لا يتفق مع قيمنا الأصيلة ، فيدخل التصميم البيوت على الرجال والنساء والولدان ؟ ! وإذا بصوته يرتفع فوق صوت العقل والمنطق ، وصوت الآباء والأمهات الذين يبذلون حياتهم يوما بعد يوم ، فى بناء الجيل الجديد وتوفير القوت ونفقات العلم والعلاج ومقابلة أزمات الحياة المتصاعدة ؟ !

وإذا لم تكن هذه عبودية . . فما العبودية ؟

إن الحرية أن نستمع إلى ذلك الصوت النقى المنبعث من داخلنا . من ضمائرنا . من ديننا . ونجعله أعلى من صوت يأتى من وراء البحار فى صورة سيطرة فكرية جديدة تتحكم فى ثياب نسائنا وبناتنا ، وما يستر ويكشف من أجسادنا .

الزى الكريم إرادة كريمة :

ولقد شاهدت هنا فى الوزارة كما شاهدت فى الجامعة ، وبخاصة بعد هزيمة يونيو كيف تمثل رفض الهزيمة زيادة تمسك بالدين . .
ورأيت هنا فى الوزارة ، كما رأيت فى الجامعة ، وبخاصة فى الكليات

التى تدخل الطالبات فيها بأعلى التقديرات : الطب . الهندسة . الاقتصاد والعلوم السياسية . . رأيت رفضًا للهزيمة ، رفضًا لأى من مظاهر الهوان والضعف . رأيت تمسكًا بالدين ، كان من مظاهره أن عادت الثياب الكريمة تستر الأجساد الكريمة وتبدو الوجوه الملائكية الطاهرة المنيرة بالعلم والتقوى لا بالازيف والتقليد .

كثيرات منهن أكرمهن الله بالتفوق العلمى وحسن الصورة . . ولكن نداء الكرامة كان عندهن أغلى من صوت الإمبراطور الصغير مصمم الأزياء من وراء البحار . . .

وابتكرت فتياتنا لأنفسهن ثياباً كريمة كاسية ، ملائمة للعمل ، تجلس بها وتقف ، وتركب وسيلة المواصلات ، وتدخل المعمل والمدرج والمستشفى ، دون أن تتعثر أو تضطرب أقدامها أو تضطر إلى جمع نفسها لتستر بنفسها بعض نفسها . . وإنما لكل ذلك ستره ووقاره وتاج كرامته . .

وزاد هذا بعد النصر الكبير فى رمضان وكان عبورنا فيه عبوراً أخلاقيًّا كما كان عبوراًعسكريًّا واقتصاديًّا .. وازددنا إيماناً بربناوديننا ، واستمساكنا بتوجيهات الإسلام فى المظهر والمخبر ، وذلك مما نحمد الله عليه .

من توجيهات السيد الرئيس :

ولقد كان من توجيه السيد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات بأن يراعى عند بناء جميع المساجد الجديدة ، أن يخصص مكان للسيدات

والفتيات . وهو تقليد قديم عشنا به قروناً . ثم تراخينا فى تنفيذه فجاء توجيه الرئيس دافعاً إلى الدقة فى مراعاته . .

وأعطى سيادته توجيهاً آخر بالعناية بالكتب الدينية ومكتبات الشباب للبنين والبنات . .

وبارك سيادته هذه الروح الطيبة التى ظهرت فى بناتنا من إقبال على التمسك بالدين .

عودة إلى الحرية :

ابنتى العزيزة :

إن أعداءنا حين يحاولون استعمار أقطارنا يقصدون عدة جبهات :

الأولى : الإخضاع السياسى . والثانية : السيطرة على الموارد الاقتصادية . والثالثة : وضع العراقيل التى تحول دون بناء الكيان العلمى فى الأمة وهو القادر – عملياً – على تحرير اقتصادها وصيانة استقلالها السياسى . .

ولكن ، هناك نوعاً آخر من الاستعمار له خطورته ، وهو الاستعمار الفكرى . . ولك أن تقولى الاستعمار الفكرى والأخلاقى . . وذلك حين تكون تصرفاتنا – التى لا نعتبرها سياسة ولا اقتصاداً ، ولا علماً – خاضعة لنفوذ أجنبى نتبعه فى ظاهر الأمر راضين ، وفى الحقيقة مكرهين ، تحت وطأة التقليد الذى نظنه ابتكاراً . . والعبودية الفكرية التى نظنها حرية .

ولك أن تقولى هذا عن شاب يطول شعره أو يقصر دون أن يعرف السبب . . تتسع ثيابه أو تضيق لتعصر جسمه ، ويتضخم حذاؤه أو يرق ، لأن إمبراطور ثياب أعطى أوامره العالمية بذلك .

عودة إلى أصالتنا :

فهل لنا أن نعود إلى أصالتنا ؟ . . هل لنا أن نرتدى من الثياب ما يستجيب لصحتنا وديننا وتقاليدنا وأذواقنا ؟ هل لنا أن نعود أحراراً غير خاضعين للتقليد دون تفكير .

وأعود فأقول : إن الغالبية العظمى من زميلاتك على نحو طيب . وليس الأمر عندى قرارات تصدر من حجرة وزير . ولكن كلمة أقدمها من موقع الأبوة الذى أعيش به معك ومع زميلاتك فى الوزارة ، كما أعيش به مع زميلاتك فى الجامعة . وكلكن بناتى ، بيننا الحوار والنصح والتفاهم . . ثم عليكن اتخاذ ما ينتهى إليه فكركن وإنى إليه مطمئن . .

اقتراح :

وأود أن أقدم إليك وإلى زميلاتك اقتراحاً : أن تتولين — فيما بينكن — عقد اجتماع فى الوزارة ، وقد أصدرت أمراً بأن تكون قاعة الاجتماعات الرئيسية تحت تصرفكن ، وتتدارسن هذا الأمر ، وتنتهين فيه إلى خطوط عمل نبدأ فى تنفيذها ، لتكون صورتنا أمام أعيننا وأمام مجتمعنا — وقبل هذا وبعده — أمام ربنا ، أقرب ما تكون إلى ما يحب .

ولو أمكن أن يتم هذا فى الفترة السابقة لموسم الحج ليكون لقاؤنا بعد عطلة العيد عيداً آخر نزيد به من طهر القلوب والثياب ، ويكون لقاؤنا — بعد يوم عرفات — وقد رجمنا الشيطان من قلوبنا . ورجمنا شياطين الإنس الذين يزينون لنا ما حرم ربنا علينا . . رجمناهم بالرفض ، وعكفنا على معانى الخير نزداد منها اقتراباً كما يزداد الطائفون حول بيت الله اقتراباً وقرباً . .

لو فعلنا هذا ، وأنت وزميلاتك — والحمد لله — له أهل ، نكون قد جعلنا العيد عيدين والفرحة فرحتين ، وفتحنا الطريق إلى العبور الأخلاقى ليدعم العبور العسكرى والاقتصادى .

وبعد : فهل هذا خطاب لك ولزميلاتك وزملائك فقط ؟ وددته خطاباً إلى الجيل الجديد ، الذى نرجو أن يكون أسعد منا حظًّا وأقدر على حمل الأمانة .

وأدعو الله لنا جميعًا قائلا « ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرك رشداً » (الكهف : ١٠) .

وكل عام وأنتم جميعًا بخير .

تحريرا فى ١٧ من ذى القعدة ١٣٩٤ هـ

أول ديسمبر ١٩٧٤ م

والدك

د . عبد العزيز كامل

شمس العيد على سيناء *

تشرق شمس العيد على سيناء اليوم وقد التقى فيها القائد بأبنائه وجنوده فى بيت الله فى « القنطرة » ، يكبرون الله ويحمدونه ويدعونه أن يثبت على الطريق خطانا تحريراً لأرضنا وتعميراً لها . . ومن بيت الله يخرج إلى مثوى الشهداء ذاكراً كريم ما بذلوا من أجلنا . . ثم إلى قرية « أبو خليفة » حيث بيوت المستقبل . .

وتتجاوب فى هذه اللحظات المباركات أصوات نسمعها بقلوبنا من داخل الأرض السليبة وفلسطين المجاهدة والقدس الشريف ، عقدت العزم على متابعة المسيرة حتى يعود صاحب الحق إلى أرضه وحقله ، ومنابت الزيتون التى طال حنينه إليها ، وعيون الماء فى الأرض المباركة التى لا يروى ظمأه سواها . .

ونتذاكر فى العيد قصة أبينا إبراهيم عليه السلام ودعوته ، وكيف استجاب له الملايين عبر القرون ، تهوى أفئدتهم إلى البيت العتيق . .

ومع تجدد الحياة تشرق علينا هذه القصة الخالدة بضوء جديد يربط بين ماضينا وحاضرنا مضيئاً أمامنا طريق العمل للمستقبل . .

فلننظر معاً إلى أضواء من هذه القصة :

---

* نشر بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٠ من ذى الحجة ١٣٩٤ هـ الموافق ٢٤ من ديسمبر ١٩٧٤ م .

١ – تعمير :

يقول الله تعالى على لسان إبراهيم : « ربَّنا إنِّى أسْكنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غيرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشكُرُونَ » (إبراهيم : ٣٧) .

وتستطيع أن تتصور الوادى قبل بناء البيت العتيق وبعده . . كان بناء البيت تعميراً للوادى تهوى إليه الأفئدة ، ويأتى إليه الحجيج من كل فج عميق .

ونحن فى حياتنا علينا أن نمتد إلى الصحراء حولنا ، وأن نرتبط بها ، وألا نظل مقيدين تقيداً كاملا بالرقعة الخضراء من بلادنا ...

علينا أن ننطلق إلى أودية نراها غير ذات زرع ولكن نستطيع أن نعمرها بالعلم والإيمان .

٢ – إرادة :

ولا يحدث هذا إلا بإرادة : لقد انتقل إبراهيم وأسرته « إسماعيل وهاجر » عليهم السلام ، من ديار خصبة إلى أرض الحجاز . والمقارنة

واضحة بين الموطنين . . ولكنها الإرادة التى تعبر عن ذاتها عملا إيجابيًّا ، دون أن تقتصر على الأمانى :

بل إننا إذا ما قارنا بين الموطن الأصلى لإبراهيم فى العراق ، والموطن الثانى فى فلسطين وموطن هاجر الأصلى فى مصر ، والموطن الذى اختاره الله لهم « فى الحجاز » . . وجدنا المكان المختار لاستقرار هذا الفرع من ذرية إبراهيم . هو أقلها حظًّا فى موارد الماء والخضرة . . ولا يعمر إلا بإرادة . .

وكذلك تعمير ديارنا ينبغى أن يستمد قبسًا من القصة المباركة . . تستطيع فيه الإرادة أن تعبر عن ذاتها فى مجالات الحياة تعميراً وبناء .

٣ — إيمان :

وترتكز هذه الإرادة على إيمان عميق بالله تعالى . . إن إبراهيم لم يكن يرى المستقبل . . والمستقبل غيب . . ولكنه امتثل لأمر الله فى أن يرفع القواعد من البيت ، فى الموضع الذى علمه الله إياه فى قوله :

« وإِذْ بَوَّأْنا لإِبراهيمَ مَكانَ البيتِ » (الحج : ٢٦) وإننا لنحس فى دعائه جانب الرحمه بأسرته فى قوله « واد غير ذى زرع » موارد لا تقوم بأود من فيه . . ومن هنا جاء الربط بينهم وبين قلوب تهوى إليهم وتحمل إليهم الثمرات . .

ونحن فى حياتنا نقيم أمرنا على الإيمان العميق بالله تعالى . . ونتخذ

من هذا الإيمان زاداً نستعين به على عقبات الطريق : فى السلم والحرب . فى حياتنا الأسرية والعامة . فى علاقاتنا بالناس وبالله تعالى .

٤ ــ تعاون :

ولقد علمتنا قصة إبراهيم درسًا فى التعاون يبدو فى قول الله تعالى :

«وإذ يَرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل» (البقرة : ١٢٧) الأب والابن يعملان معًا . الأجيال المتتابعة تتعاون معًا . هدف واحد يجمع الأسرة . والأم ــ من قبل هذا ــ كان لها سعيها بحثًا عن الماء . فكل فرد فى البيت الكريم عامل متعاون .

ونحن فى البيت المصرى . وفى بيت العروبة الكبير . وفى البيت الإسلامى الأكبر . . بل فى بيت الإنسانية الواسع . . محتاجون إلى مستويات من التعاون . . حتى نستطيع أن نرقى بالحياة لنعيش عصرنا ونشارك فى صناعة المستقبل .

٥ ــ استمرار :

وتؤكد القصة معنى الاستمرار . . فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم . . . بل إن من أهم عبر الحج أنه مستمر الطواف لا ينقطع حول بيت الله إلا عند أداء الصلاة وكأن الصلاة طواف ثابت . . والطواف صلاة تدور حول البيت . .

وتأدية مناسك الحج تتجدد كل عام . . ومناسك العمرة مستمرة كأنها ماء زمزم . . أجيال بعد أجيال يتابعون أداء المناسك كأنهم من

معالم هذا الكون . . شمسه فى إشراقها . . قمره فى ضيائه . . نجومه فى أفلاكها . .

وعلينا أن نستمر فى عملنا . . صابرين عليه . معركتنا مستمرة . تعميرنا مستمر . تخطيطنا مستمر. مسئوليتنا يسلمها جيل إلى جيل راجيًا أن تكون أكثر خصبًا ونماء . .

٦ – حب :

ويتم هذا كله فى جو من الحب والمودة . . ونعود إلى قول الله « أفئدة من الناس » ولك أن تسأل ما الذى يدعو هذه الآلاف المؤلفة من الناس إلى الذهاب إلى البيت العتيق . . ما الذى يجذبهم إليه حيث يكونون فى أقصى الأرض وبين الأهل والولد ! !

وما أحوجنا إلى أن تسرى أقباس من هذا الحب إلى قلوبنا فنتعامل بالمودة والمحبة وتتطهر قلوبنا – ما استطاعت – من الحقد والغل . .

إن الله وصف أهل الجنة بقوله : « وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ » وكأن الذى يعيش فى دنياه بغير غل ، يعيش فى جنة وهو فى الحياة . .

٧ – كرم :

والحج كرم . . وأنت تذبح فيه الهدى وتسمع قول الله تعالى :

« فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ » (الحج : ٢٨)

والقرآن يعتبر البدن (الذبائح) من شعائر الله . . وفى هذا تكريم للكرم . . وسخاء النفس . . وأنت فى الحج وفى الأضحية تأكل وتهدى وتتصدق . . يدك ممدودة بالخير والبر إلى من تعرف ومن لا تعرف . . فكلكم هنا إخوة فيكم روح عرفات . .

وتقتضينا روح الحج – وبخاصة فى الظروف المصيرية التى نعبرها – أن نتعامل بكرم النفوس داعين الله أن يقينا شح الأنفس والأيدى والألسنة . .

٨ – تشاور :

وإذا كان الحج موسم لقاء سنوى ، فلنجعل منه مجالا لنتشاور فى أمورنا ونتدارس مشكلاتنا ، ونتعاون على حل قضايانا المشتركة وبهذا نربط بين قضايا الدين والدنيا وبين المسجد والحياة ، وبين التجرد مما تعودنا من ثياب ، وحمل السلاح وفى سبيل الحق وبناء المصنع والمدرسة . .

٩ – تجدد وأصالة :

ونحن فى تشاورنا نبحث الجديد من مشكلاتنا . . وننطلق من أصالة نعيش فيها . . نأخذ من الرسول عليه السلام مناسكنا ، ونؤدى شعائر تعلمناها من ديننا ولكننا فى الوقت نفسه نعيش الحاضر ونخطط للمستقبل بنور الوحى والعلم . . فالحج بهذا يجمع بين الأصالة والتجدد .

١٠ ــ تطهر وتوبة :

وحينما نخرج من ثياب حياتنا اليومية ونرتدى ثياب الإحرام . . إنما نحاول أن نتطهر داخليًّا وخارجيًّا . . نعيش الإخاء والمساواة ، ونتذكر حديث الرسول عليه السلام : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . إنه حج يعود منه الإنسان متطهراً كيوم ولدته أمه . . الحج المبرور ولادة جديدة . وهو مرحلة حياة بعد أن عاش إلى جوار بيت الله وسط هذه القلوب المتجددة . . واستصحاب هذا المعنى . . يؤدى بالإنسان إلى التخفف من ذنوبه وتطهير قلبه ليطالع الحياة بنور جديد ، وطهر جديد . .

وبعد : فهذه أشعة من قصة العيد تخاطب عقولنا وقلوبنا عبر القرون . .

وجميل أن يتلاقى فى عامنا هذا عيد الأضحى المبارك مع أعياد الميلاد المجيد ، وأن يتلاقى العام الهجرى مع العام الميلادى فى وحدة كونية ، مثلما تلاقت جهودنا فى التحرير والتعمير فى وحدة وطنية عبرت عن ذاتها إخاء وبذلا ، وقدمت إلى الحياة نموذجًا كريمًا من السماحة والعطاء . .

وكل عام وأنتم بخير .

صلاة الجمعة فى مسجد قرطبة*

١ – صلاة

كانت لفتة كريمة من الإخوة المسيحيين فى قرطبة أن جعلوا من برنامج المؤتمر الإسلامى المسيحى العالمى الأول (١٠ – ١٥ سبتمبر ١٩٧٤) أداء صلاة الجمعة فى مسجد قرطبة الكبير .

واحتاج القرار إلى شجاعة دينية ومقاومة لبعض الضغوط والمخاوف، وارتفاع أفق جديد وأصيل من آفاق السماحة تمثل فى أسقف قرطبة الذى وافق على ذلك عندما عرضه رئيس جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية وأعضاء مجلس إدارتها المسلمون والمسيحيون فى أسبانيا . وكانوا فى استقبالنا مشكورين عند دخولنا المسجد ظهر يوم الجمعة ١٣ من سبتمبر ١٩٧٤ الموافق ٢٦ من شعبان سنة ١٣٩٤ هـ .

كان أمر الصلاة قد انتشر مع بدء انعقاد المؤتمر . وفى ضحى يوم الجمعة هبطت فى مطار قرطبة طائرة من مدريد تحمل سفراء الدول الإسلامية فى أسبانيا وطائرات من أقطار المغرب العربى تحمل صفوة من علمائها وكبار الشخصيات الإسلامية فيها . والتقى الجميع فى المسجد فى هذه المناسبة التاريخية تنتظمهم صفوف الصلاة .

---

* نشرت بجريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ٢٥ من رمضان ١٣٩٤ (١١ أكتوبر ١٩٧٤) .

٢ – الراكعون الساجدون

وتمر عيني على صفوف المصلين . . عباءات من الشرق . برانس من المغرب رءوس حاسرة . عمائم ولحى بيضاء فيها جلال المشيب. كهول مكتملون. شباب متفتح ، ومن حولنا وقف الإخوة المسيحيون وفى نظراتهم مودة وتطلع إلى هذا المشهد الجديد القديم .

وصوت القارئ يرتفع بالقرآن . . ومن حولك الراكعون الساجدون . . وترى الدموع وتسمع النشيج تطلقه روعة الذكرى ويكتمه جلال الموقف وقد انطوى كل عابد على نفسه فى عالمه بذكرياته وحاضره . .

وتمتد الأعين إلى الآيات الصامتة على جدران المسجد والمحراب . . وتقرأ : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدانا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » ظلت هذه الآيات صامتة على الجدران ثمانية قرون حتى تردد القرآن من الحناجر فى يوم الجمعة المشهود . .

ويرتفع صوت الأذان « الله أكبر . . الله أكبر » ويزداد معه الحزن والبكاء وتتذكر الأذان الأول . أذان بلال فى المدينة المنورة . . . وكيف حملته القلوب والأيدى والألسنة المؤمنة عبر الصحارى والجبال والبحار والقارات حتى ارتفع من صومعة مسجد قرطبة وظل يتردد فيها قرونًا . . .

وتستمع إلى خطبة الإمام عن الحضارة الإسلامية وسماحتها وإخائها

ويرتفع صوته داعيًا الله أن يحفظ للقلوب صفاءها ونقاءها ، وأن يجمعها على الهدى والمحبة ، وأن يوثق التعاون لترتفع أعلامه النقية . .

٣ ـ مسجد

ومسجد قرطبة درة فى جبين العمارة الإسلامية .. وضع عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ أول حجر فيه عام ٧٨٠ ميلادية . وكان آخر حجر فيه على رأس الألف الأولى الميلادية . . مائتان وعشرون عامًا فى استكمال عمل فنى ممتاز تحس حين تراه كأن المعماريين الذين أسهموا فيه كانوا فريقًا واحداً يقوده عقل واحد .

والراجح أن المسجد بنى على أرض عذراء . . بدأ قسمه الأول فى عهد عبد الرحمن الداخل وجاءت توسعته الثانية فى عهد عبد الرحمن الأوسط والثالثة فى عهد عبد الرحمن الثالث وولده الحكم الثانى . وهذه التوسعة الثالثة هى قمة عالية من قمم الفن الإسلامى وصل بها المحراب إلى ضفة نهر الوادى الكبير . . وكأن ملك بنى أمية والمسجد كانا على موعد ، فبعد هذه التوسعة بدأ الضعف فى الدولة وفى توسعة المسجد معًا . .

وجاءت التوسعة الأخيرة على يد الحاجب المنصور بن أبى عامر ولم يكن أمامه إلا التوسع شرقًا على طول المسجد . .

وظل عامراً بالصلاة والقضاء وتدارس العلم والأدب حتى سقوط

قرطبة عام ١٢٣٦ عندما خرجنا من هناك وتركنا المسجد وحيداً يلقى صروف الزمان . .

٤ ـ عودة الحياة

ولقد تحول جزء من المسجد تبلغ مساحته نحو ١٥٪ إلى كاتدرائية وتحولت صومعة المسجد (المئذنة) إلى برج أجراس . . ومن أجل ذلك أزيل ثمانون عموداً وقوساً وما فوقها من سقف . . وأغلقت أبواب كانت مفتوحة تدخل قدراً من الضوء أراده الفنان الذى صمم المسجد . . ولم يكن التداخل المعمارى محل رضا الذين أمروا به . . وجاء غير متناسب مع الوحدة الهندسية للبناء ولا مع الحلول المعمارية التى ابتكرها العقل الذى ظل مسيطراً على البناء أكثر من قرنين حتى أتمه بهذه الصورة العبقرية التى لم تتكرر . . . .

فليس هناك مسجد فى أرض الإسلام اعتمد على فكرة العقود المزدوجة . . . وأنت لا تجد عموداً يزيد قطره على خمسة وعشرين سنتيمتراً وتنتهى الأعمدة بعقود وعلى رأس العمود تجد قاعدة جديدة أقام عليها المعمارى عموداً آخر وتتشابك الأعمدة بعقود غاية فى الدقة والرشاقة . . فإذا نظرت إليها رأيت نفسك فى حديقة من حدائق الإيمان . . كأن الأعمدة أشجار والعقود فروع أثقلتها الثمار . . أو كأنها نافورات تجمد ماؤها . . وتمتد أمامك وتمتد إلى ما لا نهاية

كأنها ترتبط بمساجد الشرق . . هناك فى مصر والجزيرة العربية والشام . . . .

والمحراب آية أخرى من آيات الفن وهو عبارة عن حجرة صغيرة . . أو مسجد صغير سقفه من قطعة واحدة من الحجر على هيئة صدفة . . وفوق بلاطة المحراب والبلاطتين المحيطتين بهما عبارة عن يمين وشمال ثلاث قباب صغيرة بلغت الذروة من الجمال ودقة الفن . .

واستخدام الضوء بنسب تتوازن مع ما يدخل من الأبواب . . وهنا تحت القباب كانت قراءة القرآن . . نور القلب . . تحت نور السماء . . وفيض النور المتدفق من الأبواب . . نور على نور . . . وفى الجزء الشمالى من المسجد صحن مكشوف تغطيه أشجار البرتقال . وإذا كنت فى المسجد ناظراً إلى الخارج رأيت التداخل بين الأعمدة الرشيقة وأشجار الحديقة . .

وفى الزيارات التى قمت بها شكراً لأسقف قرطبة وكبار المسئولين المدنيين دار الحديث حول المسجد والكاتدرائية . . وهناك اتجاه فى أسبانيا يرمى إلى نقل الكاتدرائية إلى مكان مجاور للمسجد . وإعادة المسجد إلى صورته التى كان عليها وقد وجدت هذه الفكرة قبولا لدى نفر من المثقفين الأسبان . فالمسجد فى كماله واكتماله عمل عبقرى لن يجود بمثله الزمان . . والذين يفدون إلى قرطبة إنما يفدون أساسًا لزيارة المسجد . . حتى تستطيع القول إن قرطبة نفسها « ضاحية » المسجد ، وقد جرت أحاديث بين الأسبان و بعض الشخصيات العربية

المسئولة الكبيرة حول التعاون على تنفيذ مشروع النقل ليعود المسجد إلى صورته الأولى .

وإذا كان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت لتتقبله الجماهير . . فإن الصورة المقترحة والتى اطلعت على بعض دراساتها لمما يساعد كثيراً على أن تصبح لكل من المسجد والكاتدرائية شخصيته الواضحة الكاملة ، ويعطى بعداً جديداً تطبيقيًّا من أبعاد التعاون بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى . .

إننى أحس وأومن أننا نسير على طريق جديد من طرق التعاون والمحبة رأينا بعض ثماره وكلنا فى انتظار المزيد . .

وتحية إلى قرطبة السمحة وإلى إخوة مسلمين ومسيحيين أعطوا النموذج الكريم والخطوط الرئيسية لتعاون إسلامى مسيحى عالمى .

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٢٣٦١
مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٥
١٩/٧٥/١٠